أنور صباح محمود

ثـــورة الماسكارا



ثورة الماسكارا
أنور صباح محمود

الطبعة الأولى: 2018
إصدار دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد - شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07700492576 - 00711002790
E-mail: alame@yahoo.com - email: bul

ISBN: 978 - 9922 - 608 - 42 - 6

Designed by


002/ 01115742303

أنور صباح محمود

ثورة الماسكارا



الاهداء

يطيب لي ان اهدي هذه القصص الى اجدادي الذي افتخر بأن اكون سليلهم وحفيدهم.

انهم البابليون

فبفضلهم عرفت من انا وافتخر بها انا

انا بابلي... انا حفيد البابليين. انا من مدينة بابل.

واهدي قصصي الى الشعب الالماني الصديق

الى مدينة برلين اجمل مدينة في الدنيا

ارض الحرية حيث لا توجد كلمة «حرام» ولا كلمة «كفر»

الذين اهدوا للبشرية اعظم المفكرين واجمل الكتب

التي لولاها لكنا غارقين في الظلام حتى الان

شكر وتقدير

كثيرة الاسماء التي ارغب بأن اوجه لها شكري وتقديري.

أبي الدكتور صباح محمود. الذي اشترى لي اول تيلسكوب. وطلب مني أن انظر الى السماء لاعلم كم هي رحبة.

طه باقر. الرجل الذي منحني ومنح العراقيين جميعا هويتهم العظيمة.

اينانا. الهة سومر العظيمة. حبيبتي وملهمتي والهتي.

نوري باشا السعيد. الذي وصفه العراقيون بعميل الانكليز وقتلوه في الشارع، ونسوا بأنه لولا هو لما كان هناك شئ اسمه العراق الحديث.

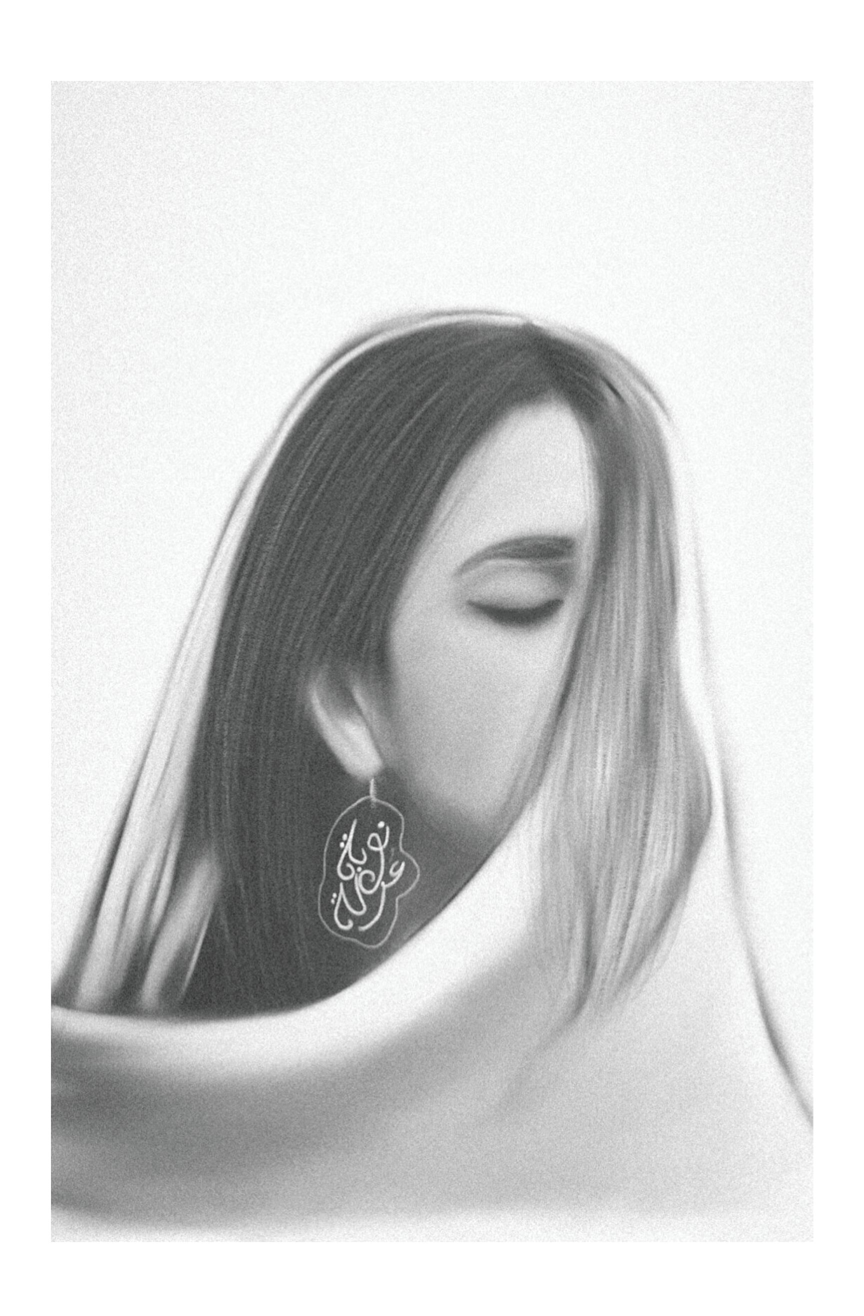
صموئيل نوح كريمر. الامريكي عالم السومريات الاول في العالم الرجل الذي عشق بلاد الرافدين فمنحته الخلود.

بيير باري. المهندس الفرنسي العظيم الذي أفنى عشر سنين من عمره يبني في بغداد اجمل كنيسة في الدنيا. كنيسة تيريزا ظنا منه بان العراقيين سيحفظون تاريخهم وشواهد حضارتهم. وكم كان مخطئا.

والى كل المفكرين الاحرار الذين اناروا بفكرهم وكتبهم مشعل الحرية للانسانية ... اينما كانوا.

انور صباح محمود

بغداد - 2018



القصة الاولى

ثورة الماسكارا

ثورة الماسكارا

- العيون الحوراء

- **الزمان: العام 2028.**
- **المكان: مطار بغداد الدولي.**
- **الوقت: الثامنة صباحا.**

اخيرا، وصلت الطائرة القادمة من مطار كييف الدولي الى مطار بغداد. نزل قسطنطين من الطائرة. كان مفتونا بالعراق. ويراه على غير ما يراه أهله. كان قسطنطين طالب دراسات عليا في التاريخ، وكانت دراسته عن الحضارة البابلية. اصبح نتيجة لقرائاته الكثيرة حول حضارة العراق القديمة وميزوبوتيميا مسحورا بالعراق. ويدرك ان هذه الارض الغنية بحضارتها الموغلة في القدم قادرة دائما على أن تبهر الدنيا. ان الاوكرانيون اكثر من يمكن ان يدركوا معاناة اهل العراق، لأن اوكرانيا هي الاخرى بلد موغل في القدم بحضارته. اذ فيها ومنها نشأة الحضارة السلافية. وانطلق اباطرتها لبناء اعظم دول العالم.

انتكست بعد ذلك وعانت من الفساد سنين طويلة. اختار شعب اوكرانيا بعدها الثورة على النخبة السياسية والدينية الفاسدة ليحول اتجاهه مئة وثمانين درجة نحو اوربا المستنيرة. قام فيها بما عرفه العالم بالثورة البرتقالية. والتي ستكون ملهمة لكل شعوب الدنيا بعد ذلك. اخذت التسمية من لون البرتقال الذي تشتهر اوكرانيا بانتاجه.

كان قسطنطين الاوكراني الوحيد بل والاجنبي الوحيد في الطائرة عند رحلة الذهاب الى بغداد. كان حالة غريبة منذ بدايتها. اذ نادرا ما كان اجنبي يأتي الى بغداد. اكمل تأشيرة جوازه. حمل حقيبته ووصل الى بهو المطار. وجد هناك امرأة تحمل لافتة عليها اسمه بالانكليزية. نائلة، امراة في الاربعين من عمرها. عطرها الطاغي ومكياجها المثير وملابسها الثورية. قميص احمر ضيق وجينز ضيق وحذاء بكعب عال احمر اللون. طلاء الاظافر احمر وكذلك احمر الشفاه أحمر ايضا. حقيبة يد مميزة ماركة كالفن كلاين وحمراء أيضا. كان كل شيئ فيها احمر اللون. انها مغوية الى حد لا تصدق انها عراقية. كانت اشبه بشيطانة سومر القديمة... اينانا. او ربما كان لها من اسمها نصيب. نائلة بنت أبليس المغوية.

(سيد قسطنطين ... مرحبا بك في بلاد ما بين النهرين). قالتها له مشفوعة بابتسامة جميلة. قالتها له بصوت عذب ومغري، وكأنها جندت معها كل شياطين الغواية التي في الدنيا. (انا مرشدتك السياحية في رحلتك الى العراق). شعر قسطنطين بارتياح بعد لقائه بدليلته السياحية الجميلة. اخذته الى فندقه. تناولوا غدائهم معا. لم يستطيع الزائر الغريب اخفاء اعجابه بمرشدته الجميلة. وطلب منها تناول العشاء معه متجاوزا خوفه من فوارق العادات واللغة والدين. ولم يكن يعلم بأن نائلة تمارس الجنس بشبق مع أي رجل يعجبها دون اهتمام. انها ترى الرجال مثل الفاكهة. تتذوقهم من دون جدوى بحثا عن طعم الرجل الاوحد في قلبها.

كان من نتائج العشاء الهادئ بينهما الخروج في اليوم التالي والتجول في مدينة بغداد الحديثة قبل الذهاب الى مدينة بابل الاثرية. اذ كان قسطنطين فضوليا ليرى بلاد ما بين النهرين الحديثة. ووافقت مرشدته على ذلك. اصطحبته نائلة الى شارع المتني الذي آثار اعجابه كثيرا، ثم اخذته الى شارع النهر حيث تباع الانتيكات وملاس النساء الجميلة. هنا استوقف قسطنطين امر غريب ولكنه آثر كتمانه حتى وقت الغداء. باغت مضيفته الجميلة بعد وجبة غداء عراقية تقليدية قائلا (يا نائلة الجميلة ان عيون الرجال في بغداد مختلفة ومميزة

وجميلة. هل يضع كل الرجال مكياج العيون؟ ام انه احتفال ما؟ ام انني احلم؟). ارتسمت على وجه نائلة ابتسامة هادئة. ارتحلت بعدها بعينيها لزمان اخر برهة من الوقت. عادت بعدها الى ضيفها الغريب قائلة (لا يا عزيزي قسطنطين انك لا تحلم. كل الرجال في بغداد يضعون الماسكارا والكحل). واستفهم هنا عن السبب فاجابته (حسنا، سأحكي لك الحكاية، ولكن في فراش غرفتك في الفندق بعد ان نشتري زجاجة من الويسكي الفاخر ونلعب الورق سويا).

- لعبة بوكر

- **الزمان: العام 2018.**
- **المكان: بغداد، حي الوزيرية.**
- **الوقت: السابعة مساءا.**

ابتدأت الحكاية بموعد غرامي بين عاشقين عاديين في بغداد. أنمار... رجل اربعيني غارق في عشق محبوبته حد التماهي والتمازج المنسجم الى ابعد الحدود. اختزل العالم فيها، بل في عينيها. اما حبيبته فاسمها نائلة بنت الثلاثين تموزا. كان انمار اول رجل في حياتها واجمل رجل واكثر الناس حنوا ورقة. تذوقت معه طعم الحب، وادخلها الى عالم الانوثة بامتياز. كان انمار يحب لعب الورق. وطلب من حبيبته نائلة ان يلعبا الورق معا. قال لها (ان غلبتك سارسم لك شاربين على وجهك الجميل). اما هي فكان اجمل ما يعجبها في انمار عينيه الناعستين وبعاداتها الانثوية قالت له (اما ان ربحت انا فسأضع الماسكارا والكحل على عينيك يا حبيبي).

كان انمار رجلا شرقيا بامتياز. لا يدخر وسعا في اسعاد مهجة قلبه. كان يسمح لها دوما بأن تبدو وكأنها هي التي تغلبه. وعندما

انتهت اللعبة قالت له (آن اوان تنفيذ الرهان). سأضع لك الكحل والماسكارا. اخرجت الكحل والماسكارا من حقيبة يدها وبدأت ترسم حول عيني انمار. وعندما انتهت جلست امامه تنظر الى عينيه بتمعن. واجتاحها شعور غريب من الغواية والسحر. واكتشفت ان عيون حبيبها صارت تشع سحرا يغوي النفوس. قالت له (هل تحبني حقا يا انمار؟). فاجابها (أي سؤال هذا، وهل لديك شك في ذلك!). وطلبت منه امرا غريبا (عدني اذا ان تضع الكحل والماسكارا على عينيك اينما ذهبت وحتى أخر يوم في حياتك). كان طلبها اشبه بطلب حواء من آدم بأن يأكل من تفاحة المعرفة المحرمة. وهو الطلب الذي ستندم عليه لاحقا ندما كبيرا. ولأن انمار كان مستعدا للموت من اجلها فلماذا لا يضع الكحل والماسكارا.



خرج من بيته في اليوم التالي وهو يضع الماسكارا والكحل. استغرب من حوله وتسائلوا (ما الذي حل بهذا الرجل المتزن العاقل. هل اصابت عقله لوثة من الجنون؟). ولكنه لم يكن ليبالي بنظرات الازدراء والاستهجان، او التعليقات الجارحة والانتقادات البذيئة. لم يكن ليبالي بهم. اذ لم يكونوا هم محور اهتمامه بل هي. أشبه بالعجوز سانتياغو الذي كتب عنه ارنست همنغواي في روايته العجوز والبحر. والذي ظل يخرج للصيد رغم شيخوخته، ورغم انه لم يصطد شيئا لمدة اربعة وثمانين يوما وفاء لوعده الذي قطعه لحبيبته (اني اعدك ان اجلب لك الاسماك من البحر حتى اخر يوم في حياتي). هو ايضا وعد حبيبته ان يبقى مكتحلا حتى اخر يوم في حياته.

وازدات نظرات الرفض وتعليقات الاستهجان عليه يوما بعد يوم. قاطعه حتى أقاربه. وتركه اصدقاءه. لم يعد أحد حتى ليسلم عليه، بل ان بعض الناس من الجهال كانوا حتى يتجنبون الوقوف الى جواره. كان يشعر بألم وضغط شديد من مجتمعه، الا ان جينات الفروسية لديه هي الاقوى. ان ما يهمه هو رضا نائلة وسعادتها. كان مستعدا لأن يحارب العالم من اجل ابتسامتها. وبدأ الاسلاميون في الجامعة التي يعمل فيها يتململون من هذا الرجل الذي صار من

غير قصد منه شيئا مختلفا عن قالبهم المتخلف وايقونة محرقة ومحترقة للحرية والتغيير والاختلاف.

وقرر نفر منهم ان يلجأوا الى احد رجال الدين من اجل ان يصدر فتوى بتحريم وضع الكحل للرجال. (ان كل محدث بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، اني افتي بحرمة وضع الرجال للكحل والماسكارا شرعا) هكذا افتى محمد العاني. رجل دين اسلامي سلفي تقليدي. عمامة حمراء مرتفعة وكبيرة وبطن ممتلئة وقفطان رمادي اللون. يعلم كل شئ ويفهم في كل شئ. ويفتي في كل شئ. تنازل له الله عن ملكية الجنة والنار ليدخل في الاولى من يشاء ويخرج من الثانية من يريد. أشبه بحال البابوات في اوربا القرون الوسطى الذين تنازل لهم الرب عن البركات ليهبوها لمن يشائون ويمنعونها عمن يكرهون.

بقي انمار صامدا رغم التحذيرات والتهديدات. ولم يتراجع او يهتز. ولم يخبر حبيبته نائلة عن كل ما يعانيه. وأخيرا، قررت مجموعة من عصابة محمد العاني الاعتداء على انمار. وقاموا بضربه ضربا مبرحا حتى فقد وعيه. حملوه الناس الى المستشفى. وعرفت نائلة بما حل بحبيبها بعد ايام من القلق المرعب عليه، فالانسان هو الشئ الوحيد في العراق الذي ليس له قيمة. عرفت نائلة من زملاؤه

في العمل ماذا كان يعاني. وعرفت ما الذي تحمله من اجل الوفاء بوعده لها. جلست امام سريره في المستشفى تبكي بحرقة والم وحقد كبير. كان الطبيب النفسي اخبرها بأنه اصيب بشلل تخشبي نتيجة صراعه مع المجتمع لارضاء رغبته (وهي في الحقيقة رغبتها) في وضع الكحل والماسكارا وازداد بعد الاعتداء الذي تعرض له. وانه لن يشفى الا اذا احس بأن ما فعله كان امرا عاديا. وان كل الناس كانوا ليفعلونه.

هنا راح الذنب يقتل نائلة. وقررت ان عليها شفاء حبيبها واعادته الى العالم مهما كلفها الامر. ان نائلة امراة قلما تجد مثلها. انها تتحول الان لتصبح فعلا بنت ابليس المغوية من اجل حبيبها. تحولت من دون ان تدري هي ايضا الى جان دارك عذراء فرنسا المغوية. وتحول محمد العاني الى اسقف دوفوبويه الفاسد الذي ينشر الجهل والتخلف بين ابناء وطنه.

3 - الحسناء والوحش

- **الزمان: العام 2018.**
- **المكان: بغداد، مقر احدى القنوات الفضائية.**
- **الوقت: العاشرة مساءا.**

اصبح البكاء رفيقها الجديد. تصمت تارة وتصرخ اخرى. وكأن الاله استجاب صلواتها الموصولة في الليل. خرجت ذات يوم وكأن شيئا لم يحدث. انها ذات نائلة الممتلئة بالنشاط والحيوية. اهتدت الى القيام بحملة لتحث الرجال على وضع الكحل والماسكارا. وجعل النساء يطلبن ذلك من ازواجهن وابنائهن. خلقت مجموعة على الفيس بوك وتويتر وافتتحت قناة على اليوتيوب. طبعت بطاقات وصور تشرح قصتها للناس. كانت تريد ان يضع العراقيون الرجال الكحل والماسكارا حتى تريهم لحبيبها المشلول كي يرجع الى حالته الطبيعية. نشرت مقالات في الصحف واجرت مقابلات في القنوات الفضائية. دخلت الحرب بكل قوتها واسلحتها الانثوية.

لم يستطع محمد العاني تقبل ما تقوم به نائلة. وبغباء رجل دين اسلامي تقليدي اخذ ما تقوم به نائلة وكأنه أمر شخصي في حين

ان كل ما كان يهم نائلة هو انهار حبيبها فقط. انبرى محمد للرد على حملتها وكأنها موجهة ضده هو. حاول بجهده الوقوف ضدها. وشن حملة مضادة. انتقص منها وجرحها وأهانها، ثم انتقل الى تهديدها. وأخيرا قررت احدى القنوات الفضائية عمل مناظرة بين الاثنين. كان لقاءا ارتقبه العراقيون جميعا. رجل دين متكبر ومغرور مقابل عاشقة ثكلى. ياله من لقاء.

استعد الاثنان ليوم اللقاء الفاصل وكأنهما يستعدان للمعركة الكبرى. كانت نائلة مصممة على التحدي. انها نقيض كل ما يدعو اليه محمد العاني. ارتدت اجمل فساتينها الضيقة. ووضعت مكياجا مثيرا. واقراط اذن مثيرة. وكانت فتحت ثوبها العلوية تبرز صدرها المغري. وحذائها الاحمر ذي الكعب العالي كان حكاية لوحده. اما محمد فكان حريصا على ابراز لحيته الكبيرة. وارتدى عمامة أطول من تلك التي يرتديها عادة. كان سينفجر من كثر الغرور.

انبرى كل منهما للدفاع عن وجهة نظره وسرد قصته واظهار ادلته وحججه وبراهينه. ورغم ان البادي للعيان وحدة الموضوع الا انهما كانا يبدوان من كوكبين مختلفين. اذ في الوقت الذي كانت فيه نائلة تتكلم دوما عن حبيبها انهار. وان جل ما يهمها هو عودته اليها. استرسل محمد في فتاوى التحريم والنار التي يتوعد بها العراقيين.

كانت نائلة تتكلم عن السلام والحرية والمحبة وقبول الاخر المختلف عنا. اما محمد العاني فنصب نفسه واليا على العراقيين. وكأنه ولي أمرهم وولي نعمتهم. كان سينفجر من غروره وتكبره. قارب اللقاء المحترق من النهاية. وكان لابد للاثنان ان يقولا كلمة اخيرة.

رجع الى ظهر الكرسي كأنه يتحسس عرشه، عرش خلافته المزعومة التي أكل الدهر عليها وشرب. مغرور بالحمقى الذين يتبعونه بدون عقل ووعي (انا أوكد فتواي. أي رجل يضع الكحل والماسكارا خارج عن اهل السنة والجماعة). اما نائلة فقررت ان تستخدم سلاح المرأة النووي. التفتت الى الكاميرا. خاطبت العراقيين بصدق ومن كل قلبها. كانت دموعها المنهمرة هي سلاحها الاقوى (انا لا اهتم بالمكياج ولا بالكحل والماسكارا. ولم آتي الى هنا لأحارب احدا. ان كل ما يهمني هو استعادة حبيبي المشلول. واخبرني الطبيب أنه لن يشفى الا رأى الرجال يضعون الكحل والماسكارا. انا امرأة عاشقة مسكينة. انتم اهلي وانا احبكم وليس لي غيركم. وانا ارجوكم واخاطب النخوة والطيبة والحق والعدل فيكم. ساعدوني فانا ليس لي غيركم على استعادة حبيبي المشلول. اليوم هو الجمعة. ارجوكم ان تضعوا الكحل والماسكارا يوم الاحد. يوما واحدا فقط حتى يراكم حبيبي ويعود الي. أرجوكم ساعدوني).

ارسل محمد العاني اتباعه ليهددوا اصحاب محلات بيع المكياج. ويطلبون منهم التوقف عن بيع الكحل والماسكارا حتى يوم الاحد. وتوعدوا من يخالف بالويل والثبور وعظائم الامور. وأنه لن يلوم الا نفسه. ودخلت الدولة كلها في حالة من الانذار والترقب. اجهزة الشرطة والمخابرات والسياسيون ورجال الدين والادباء والكتاب والاعلاميون. ماذا سيختار العراقيون؟ هل سيقفون مع نائلة الفتاة المسكينة. ويساعدوها على استعادة حبيبها المشلول ويتخلون عن خوفهم من محمد العاني واتباعه. ام سيخافون من محمد ويخضعون له. كلا الخياران كانت ستغير خارطة العراق الى الابد.



4 - الحب ينتصر على الخوف

- **الزمان: العام 2018.**
- **المكان: بغداد، يوم الاحد.**
- **الوقت: الثامنة صباحا.**

أخيرا... جاء يوم الاحد الموعود. اشرقت الشمس بأشعتها الذهبية على مدينة بغداد لتمزق ظلام الليل. ويبدو ان ظلام العقول ايضا آن له ان يتمزق. خرج الموظفون من بيوتهم، وبدأ العمال في الذهاب الى اماكن عملهم، والطلبة الى مدارسهم. كان كل شيئ غريبا في ذلك اليوم. لم تقبل النساء العراقيات الا ان يساعدن نائلة، انتصرن لها. قامت المراة العراقية بثورتها الاولى اخيرا. طلبت كل النساء من ازواجهن وضع الماسكارا من اجل نائلة. ووضعن الماسكارا لاطفالهن من أجل نائلة.

واكتشف العراقيون امرا غريبا. صارت عيونهم اجمل واحلى. واستغربوا لماذا حرموا تلك المتعة على انفسهم (هاي شنو ابو محمد لايقتلك الكحلة)، (يا ... حسوني عيونك طالعة اتجنن)، (زيودي ... حبيبي اوعدني تبقى متكحل مثل انهار حبيب نائلة).

وفجأة تغيرت بغداد كلها بين ليلة واخرى. انتصر الحب والسلام على الخوف والسلاح. انتصرت نائلة بنت ابليس المغوية على محمد العاني الذي توعد العراقيين بالنار. نسي محمد ان العراقيين شعب ثائر بطبيعته ولا يحب الوصاية ولا يخاف من النار.

هرعت نائلة الى المستشفى. اخذت انهار على كرسي متحرك لتريه المعجزة. اول من التقى بهم الاطباء ومنهم طبيبه (صباح الخير استاذ انهار. شنو رأيك بالكحلة مالتي) . وبادره الشرطي الذي يحرس المستشفى باعطائه قلم الكحلة التي وضع منها صباحا قائلا (احلى كحلة، لأحلى استاذ). اخذته الى شارع المتنبي الذي يعشقه. وهناك تزاحم الناس. (صباح الخير استاذ انهار. اني خليت كحلة وماسكارا). وقال اخر (ست نائلة اليوم بغداد كلها خلت كحلة وماسكارا لعيونك وعيون استاذ انهار). (لا تخافين ست نائلة يومية راح اخلي كحلة وماسكارا). انحنت امامه وسط الشارع (انظر ياحبيبي ... انظر الى كل رجال العراق. اثبتوا اليوم انهم ابطال واحرار. انظر الى عيونهم الجميلة... انهم جميعا يضعون الكحل والماسكارا).

صارع انهار مرضه. وقف على قدميه وسط مثقفي ومفكري العراق الاحرار. عيناه نصب نائلة كما كانت دوما ومنذ ان عرفها. حارب لينطق الكلمة التي اراد ان ينطقها منذ زمن طويل. صك

الحب امام الناس جميعا (نائلة ... اني احبج). احتضنوا بعضهم وسط الشارع وامام الناس. كانت قصة حب لا تذكر ... لأنها ببساطة لا يمكن ان تنسى.

ولكن للجسد والمرض احكام اخرى غير احكام القلوب والحب وللأسف اقوى منها. لم يكن انهار قادرا على تحمل صدمته الاولى ولا الثانية حتى. لم يتحمل قلبه الصغير الفرح. سقط على الارض. وضعت نائلة رأسه في حضنها وراحت تصرخ وتبكي بين الناس. انهدم عالمها فجأة أيضا. وهجم الظلام بقوة وقسوة كما لم يفعل من قبل.

وضع مثقفوا العراق التمثال الاول في شارع المتنبي لشهيد الحب والسلام وقائد ثورة الماسكارا. وبقي العراقيون منذ ذلك اليوم يضعون الكحل والماسكارا على عيونهم عندما اكتشفوا انها صارت اجمل. اما نائلة فاصبحت مرشدة سياحية. تنشر البهجة في قلوب الاخرين بينما يغرق قلبها في بحار متلاطمة من الدموع والاحزان. (هذه يا عزيزي قسطنطين قصة عيون العراقيين الجميلة).

كان قسطنطين بدأ بالبكاء منذ زمن طويل. اطرقت لوهلة ثم نظرت اليه قائلة (قسطنطين ... خذني معك الى أوكرانيا. انقذني من هذا البلد القفر القاسي). ابتسم قسطنطين. وكأن نائلة تبوح بما يجول في قلبه. اذ انه كان يحلم ان يأتي الى بلاد ما بين النهرين ليخطف

منها سميراميس (محبوبة الحمائم). اميرة بابل الجميلة. ويأخذها معه الى أوكرانيا. (ستأتين معي يا نائلة ... ستكونين حبيبتي وعشيقتي وزوجتي ان قبلتي). احتظنته وهي تحاول ان تتلمس فيه ملامح انهار. قررت الرحيل الى اوكرانيا لتبدأ قصة حب جديدة وربما ثورة جديدة.



ملاحظة:

لو كنت مكان انهار هل كنت ستضع الكحل على عينيك من اجل نائلة؟ انا سأفعل.

ولو كنت انت مكان نائلة هل ستطلبين منه ان يضع الكحل والماسكارا بعد هذه القصة.

وانت ايها القارئ ... هل كنت ستضع الكحل والماسكارا يوم الاحد وتكسب حريتك.

أخيرا، رغم جمال قصتي الا اني اريد ان ابوح لكم بسر. لا اعتقد ان العراقيين كانوا سيضعون الكحل والماسكارا يوم الاحد حتى لو كان هناك الف نائلة والف انهار. انا يائس من العراقيين جميعا.

القصة الثانية

عاشق الطين

عاشق الطين

1 - من سومر الى أمريكا

- **الزمان:** 28 شباط 1924.
- **المكان:** الحلة، حي الجامعين.
- **الوقت:** العاشرة صباحا.

ازاحة الستارة التي تغطي نافذة غرفة الاستقبالبهدوء وبطء في يوم ربيعي جميل. كانت أمل تلك المرأة الاربعينية تراقب من النافذة طفلها الصغير طه وهو يلعب بالطين في الحديقة. لم تمض برهة من الوقت حتى وضع باقر يده بحنو على كتفها. انتبهت له يضع عينه على طفله ويبتسم. كان طه يلعب في الحديقة. انه ظاهريا مثل أي طفل اخر. خدوده المدورة ويداه وقدماه الممتلئتان. يرتدي جلبابا قصيرا من الكتان. حافي القدمين. يستكشف عالمه الجديد بكل اهتمام متسلحا ببرائته. قالت لزوجها (ان طفلنا غريب ياباقر. لا يحب اللعب بالعصي ولا بالكرات الزجاجية مثل باقي الاطفال. انه

يقضي جل وقته في الحديقة. ويصرف ساعاته وهو يلعب بالطين. ترى هل سيكون ولدي الذي انتظرته طولا فلاحا!). فأجابها (وربما سيكون مهندسا زراعيا مثل الذين بدأنا نراهم هذه الايام ... لا تخافي عليه.).

كان طه يقطع مع والده باقر كل يوم طريقا طويلا من منزلهما في نهاية المنطقة التي تعرف بحي الجامعين وهو من أقدم احياء مدينة الحلة الحديثة الى حسينية بيت مرجان حيث كان والده يجلس ليعلم أمور دينهم. اذ انه كان رجل دين معمم. ينتسب باقر لعائلة عرفت بتدينها وكان اكثر رجالها رجال دين معممين، لكن الاقدار كانت تخبئ لطه طريقا اخر. ان باقر ليس رجل دين تقليدي، اذ كان يدرك ان طوفان العلم قادم لا محالة. وسيغرق كل من لا يجيد الابحار فيه. لذا لم يجر ولده على اتخاذ طريق الدين كدراسة وعمل له فضلا عن ان طه لم يكن أبدا معجبا بعمامة أبيه. ولم يحاول يوما ان يستكشفها مثلما كان يحب ان يستكشف طين حديقته.

كانت تلك التماثيل والاحجار الصغيرة التي بفترش بها الفقراء أرض سوق الجامعين هي التي تثي اهتمامه. يقف أمامها طويلا. ويطرح شلالا من الاسئلة لم يكن عند أحد ممن حوله جواب لها، سوى أنها اشياء قديمة يجدونها في الصحراء لقوم كفار سكنوا هذه

الارض منذ القدم. وان الله افناهم كعقاب لهم على خطاياهم.

لما أدرك باقر شغف ولده بالعلوم والدراسة. قرر ان يرسله الى بغداد. وهناك في الثانوية المركزية أشهر مدارس بغداد بدأت الرحلة. رحلة ستقوده من بابل مدينة الملوك والاساطير الى أقصى الارض ليعرف اسماء وقصص تلك التماثيل التي كان يجدها على ارض الاسواق. أكمل دراسته بتفوق. اذ لم يكن مهتما أبدا بما يجري حوله من احداث الحياة اليومية. وكأنه ولد في زمانه بالخطأ. وكأنه كان يجب أن يولد في زمان أخر. ورغم تفوقه الا ان صور تلك التماثيل والاحجار لم تفارق مخيلته أبدا.

وتستمر الرحلة من بغداد الى مدينة صفد ثم بيروت ثم فلسطين. احتك هناك بالاوربيين. وتعلم منهم بأن تلك التماثيل لم تكن اصناما من صنع الذين افناهم الله، بل هي شواهد لحضارة عظيمة سادت الدنيا. انهم اجداده. هناك بدأت الاجابات تتشكل. وسمع عن اسم اخر لبلاده " ميزوبوتيميا – بلاد ما بين النهرين ". اتخذ قراره الحاسم ان يجعل شغفه الكبير دراسته وعمله.

وأخيرا حطت طائرة اللوكهيد في مطار شيكاغو في الولايات المتحدة الامريكية. النقلة الكبرى التي ستغير حياة طه وقدره. وربما ستغير قدر بلاد الرافدين الى الابد. الى أمريكا بلاد الحرية، وصل

الشاب الشغوف بالآثار. هناك في أمريكا لا توجد كلمة "كفر" ولا كلمة "حرام". هناك الطريق ممهد امام العقل ليفكر في أي شيئ وفي أي وقت بلا قيود ولا محرمات. هناك رأى طه كيف ان الانسان اذا أعمل العقل والمنطق والحرية في حياته بنى اعظم حضارة في الدنيا من لا شيئ. واذا ترك عقله نهبا للخرافات والاساطير التي ينشرها بعض رجال الدين تحول الى بلد مستضعف ومنهوب ومقهور مثلما جرى لبلاده.

ذهب الى معهد الدراسات الشرقية. المعهد الذي تعهدته عائلة روكفلر الشهيرة، وأسس بمنحة منها سنة 1919م. كان كل شيئ مختلفا مختلفا. بناؤه القوطي، التماثيل والمنحوتات الحجر والخشب. هناك رأى طه كيف يعامل الاساتذة والطلبة التماثيل التي كانت تثير شغفه والرقيمات الطينية التي كانت تثير تساؤلاته وكأنها كنز لايقيم بشيئ على الارض. كان يريد أن يصرخ قائلا لهم (هذه آثار اجدادي. انا حفيدهم. انا من بابل التي تعشقونها. هذه آثار وطني.).

وقف امام مكتبه كالجندي. قال له (انا الطالب طه باقر. جئت اسجل مباشرتي بالدراسة.). اجابه الرجل الكبير السن ببرود وهو محني ومنهمك في دراسة احدى الرقيمات الطينية قائلا (من أين أنت؟ يبدو اسمك غريبا.). وكان طه ادرك هويته وحددها منذ

زمن طويل. اجابه بدون تردد (انا من بابل يا سيدي، انا حفيد البابليين). رفع الرجل رأسه مندهشا من الجواب، ونزع النظارة من عينيه. وبدأت منذ تلك اللحظة علاقة غريبة تجمع بين الرجلين. كان ذلك الرجل العجوز هو صموئيل نوح كريمر الذي سيوصف بعد أعوام طويلة بعالم السومريات الاول في العالم. انه الرجل الذي ازال الغبار عن سومر وعاصمتها اوروك كما سماها من سكنوها. وجعل الدنيا تعرف اول مدينة بناها الانسان على كوكب الارض.

لم يكن من السهل اقناع رجل مثل كريمر باختيار طالبه الاول وخليفته. الا ان الاقدار تحسم أمر العظماء دوما. أخيرا وجد كريمر خليفته. اذ من سيكون أحق من طه باقر بالمطالبة بارث اجداده. ومن سيكون أحرص منه على سومر وبابل!. راح كريمر يشرح لطه مبادئ اللغة السومرية. ويحكي له عن اكتشافاته في مدينة نفر واعجابه بها. كان يأخذه معه لمواقع التنقيب حتى يتعلم كيف يستخرج الاثار. وكيف يعاملها كامرأة جميلة ورقيقة. ويتركه احيانا مكانه في ادارة موقع التنقيب.

اشركه في العمل العظيم على اصدار القاموس الاشوري. والذي يعد جوهرة انجازات الجامعة والمعهد. كان طه في ذلك الوقت يغزل حلمه الكبير. ويزداد هذا الحلم سعة وتفصيلا كلما

تأمل متحف المعهد بمجموعته الاثارية. وكلما زار متحف فيلد على بحيرة ميتشغان الذي انشأ سنة 1894م. والذي كان يحوي اربعون مليون قطعة آثارية.



2 - بابل تعلن الحرب

- الزمان: السابع من تموز سنة 1941.
- المكان: المجلس الوطني العراقي، بغداد.
- الوقت: الحادية عشر قبل الظهر.

عاد من امريكا بلاد الحرية ليس كما ذهب اليها. انه اليوم متسلح بالعلم والمعرفة. صار اليوم اكثر من يعرف الاجابات عن تلك التماثيل والالواح، انه يستطيع قرائتها ايضا. تزوج طه وانجب طفلة جميلة سماها " أمل ". كان ممتلأ بالامل. وجد كنزه الكبير، لم يكن مجرد تمثال او رقيم طيني. وجد للعراقيين هويتهم. هويتهم التي فقدوها منذ أن سقطت بابل بأيدي الغزاة. ورأى ما لم يستطيع العراقيون كلهم رؤيته. ان العراق ليس فارسيا وليس عثمانيا وليس عربيا.

انه سومري وبابلي. انه بلاد ما بين النهرين، ولن يكون غير ذلك. ولد حرا وسيبقى حرا ولن يكون أبدا تابعا لأحد. كان كلما حمل طفلته الصغيرة بيديه ونظر اليها ادرك بأنه امام مسؤولية عظيمة. انه الوحيد القادر على أن يمنح للعراقيين هويتهم. كيف

السبيل الى ذلك؟ وكان الجواب دوما هو حلمه الكبير. المتحف الوطني العراقي في بغداد.

لم يكن قادرا على اقناع العراقيين وجعلهم يعرفون قيمة اثارهم. لم يكن قادرا على احياء بابل والوركاء لوحده. ولكن حلم المتحف كان يسيطر على روحه وكان رفاقه هم كل تلك الشخصيات العظيمة التي عرفها اينانا الهة سومر العظيمة وكلكامش حارس اوروك المغوار وخمبابا المنتقم الجبار وانكيدو الصديق الوفي. كان يحلم كل يوم بقصر اسطوري عظيم اشبه بقصور حمورابي ونبوخذ نصر ينتصب وسط بغداد ليحكي للعالم قصة الوركاء وبابل. قصة اول مدينة واول حضارة واول قلم واول كلمة.

ومنذ ان تسلم ادارة متحف بغداد للاثار سنة 1941م، جعل جل همه اقناع المسؤولين في العراق بأن الوقت حان لبناء هذا الصرح العظيم. كتب الدراسات وطلبات الانشاء الواحدة تلو الاخرى واقام المحاضرات وشرح للناس فكرته. وبعد جهد طويل طلب اعظاء البرلمان مقابلته للبت في طلبه. كان طه يعلم فساد البرلمان في ذلك الزمان. يسيطر عليه رجال دين متخلفون وشيوخ قبائل فاسدون. كان يعلم بأنه سيكون يوما عصيبا. ويعلم أيضا ان بابل وسومر كلها ورائه. انه واثق بأن اينانا الهة سومر العظيمة ستقف الى جواره ولن تخذله.

انهى سكرتير المجلس قراءة الموضوع وطلب منه ارتقاء المنصة. وعندها احس أنه اشبه بكلكامش حارس اوروك المغوار. اخذ ورقته وكأنه اشهر سيفه. قال لهم (ان حضارة بلادنا امانة في اعناقنا. وبها نباهي الامم جميعا. وأردف قائلا : من المعيب ايها النواب وانتم من تمثلون شعب العراق بماضيه وحاضره ومستقبله ان تسمحوا بضياع حضارته). دب هنا جدل ولغط كبير بينهم. صاح احد رجال الدين المعممين قائلا (أتريد ان تبني معبدا لاصنامك في بلاد الاسلام والتوحيد!). وقال شيخ عشيرة مستهزئا (واي نفع سيعود علينا من هذا المتحف الذي تريده).

استشاط غضبا. قبض على يديه بقوة. انحنى على المنصة كما ينحني اسد بابل لينقض على اعدائه ويمزقهم. أنارت عينيه بالحرب وكأنها عينا نرجال اله الضوء والموت. صار مخيفا وقويا وكأنه امتلك اجنحة اينانا الهة سومر العظيمة مشرعة رعبها. قال لهم (كيف تقولون مثل هذا الكلام؟ كيف تقولون هذا؟ هؤلاء اجدادنا الذين تتكلم الدنيا عنهم. هذه خيانة للعراق، لتاريخه وشعبه. اني لا ارى امامي سوى حفنة من الجهال واللصوص. سيعاقبكم العراق يوما. سيعاقبكم شعبه وارضه. ستعاقبكم عشتار ولن ترحمكم).

كان في تلك الجلسة العاصفة التي انتهت بهزيمة طه رجل

صامت وقوي. انه اشبه بننشوبر حارس اينانا الامين. يراقب من بعيد وبعد بضعة ايام ارسل الى طه (استاذ طه ... الباشا يريد يشوفك. ياريت تتفضل ويانا). كان طه يعرف شخصية الباشا "نور السعيد". انه رجل هائم بحب اوربا. يحلم ان يجعل من بغداد لندن الشرق.

جلس امامه وكان الباشا منهمكا بأوراقه. قال له (ماذا كنت تنتظر منهم يا طه !؟). نظر وابتسم بخبث يمتلئ بالقوة (هل مازلت تريد ان تبني متحفك؟). قام من كرسيه بتثاقل. واتجه نحو خزانة خشبية فيها زجاجة للويسكي. صب منه كأسا. اخذ رشفة ثم عاد ليجلس امام طه. وضع الكأس بحرص على مكتبه. قال (انا كما تعلم لا استطيع ولا احب ان اخرق الدستور. ولا اقدر ان اجبر هؤلاء الاغبياء على اعطائك التخصيصات التي تطلبها. ولكن... لا أحد يستطيع ان يمنعني من ان اعطيك قطعة أرض فارغة لبناء متحفك. هناك أرض فارغة في منطقة الصالحية مساحتها خمسة واربعون الف متر مربع... ما رأيك).

تملكه الفرح وهو يقرأ الامر الديواني الذي أمهره الباشا بنفسه. جاء زملاؤه ليهنوئه. ابتسم وراح يقول في سره (كنت اعلم ان اينانا الهة سومر العظيمة لن تخذلني، فأنا احبها. انا عبدها وهي الهتي. وان كل ما

اعمله من اجلها ومن اجل عينيها الجميلتينالتي تشبه اللؤلؤ الصافي).
صاح على سائقه (كاظم ... شغل السيارة. راح نطلع). اجابه السائق (وين استاذ طه). قال بحماسة (الى عقد النصارى يا كاظم).

انتشرت طاقة غريبة في جسده. ذهب الى عقد النصارى. اشترى اوتادا من الخشب واسلاكا شائكة وقطعة خشب كبيرة. وصل الى أرض المتحف. تخيل قصرا من قصور بابل الاسطورية وهو ينتصب هنا. وكما رد نبوخذنصر العدوان عن بابل في أوج الشمس الحارقة، نزل هو الارض الخالية. اخذ يحفر الارض بيديه الناعمتين اللتان تعودتا على الكتب والورق والقلم. تلك اليد السمراء الناعمة التي ازالت التراب عن بابل والوركاء. راح يغرز الاوتاد في الارض برفقة سائقه كاظم. فك الاسلاك الشائكة وراح يلفها حول الاوتاد غير مبال بالشمس المحرقة ولا بوخزات الخشب والحديد والدماء تسيل من يديه. أخيرا، وضع تلك اللافتة التي كتب عليها (المتحف الوطني العراقي).

وقف ينفض التراب عن ملابسه، ويربط يديه المدماة بقطعة قماش. ويمسح العرق من على جبينه الاسمر. وهو ينظر اليها بفخر. اغرورقت عيناه بالدموع. ها هو حلمه بدأ يتحقق. ان ايناتا تحرسه وتساعده. قال له السائق (راح تبنون متحف جديد هنا استاذ طه).

اجبه وقلبه مشرق بالامل (سأبنيه وربما سيبنيه عراقي أخر من بعدي من احفاد كلكامش وأوروك).



3 - نورفي بغداد الجديدة

- **الزمان: الثاني عشر من ديسمبر سنة 1945م.**
- **المكان: تل حرمل، بغداد الجديدة.**
- **الوقت: التاسعة صباحا.**

جلس على مكتبه صباحا. اشعل سيكارته وهو ينتظر قدح الشاي الصغير ليبدأ يومه التقليدي. توقف فجأو عن شرب الشاي، واحرقت السيكارة الصغيرة المنتهية اصبعه. كان يفكر في تلك البعثة المشتركة مع الانكليز التي سيرت لبغداد الجديدة. اذ تواردت التقارير المتكررة عن لقى اثرية هناك. ادرك طه ان الحملات المشتركة عادة ما تكون مصحوبة بقوة عسكرية من الانكليز لحمايتها. ولم تكن المنطقة فارغة كأغلب مناطق التنقيب الاخرى، بل تسكنها عشائر عربية. وهو ما كان ينذر بوقوع كارثة. اخذ سائقه وخرج مسرعا ليلحق بموكب البعثة.

توقفت السيارة العسكرية الاولى. فتحت الباب. ترجل منها شاب قوي البنية معتد بنفسه. الملازم الشاب كوك. تخرج

حديثا من الكلية الحربية الملكية. مفعم بالنشاط والحيوية. بياضه الابهق وعيناه الزرقاوان وشعره الذهبي. ملامح انكليزية لا يخطؤها العراقيون. جال ببصره حول المكان ومن فوق عربته تلك الرشاش المتوسطة. كان ينظر الى العراقيين باستعلاء وتغطرس. انه لا يرى في هؤلاء القوم الذين يرتدون الجلابيب والعقال سوى همج ورعاع. أمر جنوده بالانتشار حول الموقع (Come on build defensive parameter ، Prepare your weapons، Be ready) (هيا اقيموا ساترا دفاعيا، اشحذوا اسلحتكم واستعدوا). وكانت العيون طارت بالاخبار ومن بين اشجار النخيل ظهروا كالاشباح والشياطين. انهم احفاد سومر وبابل.

ملامحه حادة وقوية حفرتها حفرتها السنون بقسوتها على جبينه. شوارب كثيفة، وحاجبان كأجنحة الصقر. عقاله العربي، وعباءته السوداء. يجر خطاه بتثاقل. تسنده عصاه القديمة. وقف الرجلان امام بعضهما. عينا الشيخ عامر أشبه بعيني الاسد المتربص اذا غفل عنها كوك سيأكله بأسنانه. تجمع ورائه مئات من ابناء العشائر

باسلحتهم، منتظرين ان يرفع يده السمراء ليمزقوا القوة الانكليزية. قال له وكأنه مرتكز الى اقصى عمق الارض (مستر اخذ رجالك وارجع لانكلترا احسن ما اخلي كاع بغداد كبر الك ولجنودك). وضع كوك يده على مسدسه الذي في حزامه. تأهب الطرفان وكانت الكارثة على وشك ان تقع.

وصل طه الى الموقع في قمة المواجهة. وقف بين الرجلين. استدار نحو الملازم الشاب. كان كوك مستعدا لتقبل طه الرجل العصري بعدما عرفه بنفسه. قال له بلغة انكليزية طليقة

(lieutenant ... Look around you. They are much more than your forc y are much more than your forc.c..e. unnecessary action will lead to a massacres. Retrieve and leave the area. I will handle the locals. I promise you.)

(ايها الملازم، انظر حولك. انهم اكثر عددا من قوتك. أي عمل طائش سيقود الى مجزرة لا تحمد عقباها. ارجوك انسحب واترك المكان. وسأتكفل انا بالاهالي. اعدك بذلك). وجد كوك منطقا في كلمات طه فهو لا يريد ان يخسر جنوده، ولكنه لم يكن واثقا تماما. أمر جنوده بالتراجع لا بالانسحاب، اثناء توجه طه نحو الشيخ عامر.

عرف نفسه الى عرب المنطقة. كان بملامحه الجنوبية اكثر قبولا

لديهم من الضابط الانكليزي المتعجرف. دخل برفقة الشيخ عامر الى مضيفه. خلع حذائه وجلس الى جواره في المضيف بعد أن تربع على الارض. اشار الى الجميع (الله ابو الخير، الله ابو الخير). استدار الى الشيخ عامر وقال له (شنو شيخ اليوم ما تشربنا كهوتك). صاح الشيخ عامر (كهوة يا ولد). شعر جميع الجالسين بالراحة. وانتهى التوتر عندما بدأ طه يكلمهم عن والده وعن مدينة الحلة. شعروا بأنه ليس غريبا عنهم، انه واحد منهم. جلسته، كلماته وتعابير وجهه. انه قوي ومتعلم ومنهم. انه قادر على ابعاد الانكليز عنهم. اذ ان الشيخ عامر كان يعلم بأنه اذا امر بقتل القوة الصغيرة. ستأتي جحافل كبيرة لا يقدر على مقاومتها في اليوم التالي. وسيستغل الانكليز ذلك كحجة لكسر شوكتهم واحتلال المنطقة واستباحتها. الشيخ عامر رجل حكيم وهو مثل كوك لم يرغب بالمواجهة.

وصلت القهوة. اخذ طه قدحه ووضعه على الارض. استغرب عامر وقال له (ليش استاذ طه!). ان طه يعلم عادات العرب وكيف يتكلم معهم. اجاب الشيخ (شيخ اني عندي حاجة عندك. هذا الموقع بيه آثار اجدادنا واني اريد اطلعها للعالم، حتى الناس وبالذات الانكليز يعرفون انه احنا بلد عظيم. وانه العراق عمره ما كان تابع

لبريطانيا. اريد موافقتك وتسمح للمنقبين يشتغلون). صمت الشيخ عامر لبرهة من الوقت ثم اجاب (على شرط انه الكاع تبقى عند الحكومة مو عند الانكليز. وما يشتغلون الانكليز بكاعنا بس العراقيين). ابتسم طه (ما يصير خاطرك الا طيب شيخنا. هاي سهلة). شعر الشيخ عامر بأن المسألة سويت (حاجتك مكضيية يا وليدي. اشرب كهوتك). تنفس الجميع الصعداء. وانهى طه الحرب المحتملة بحكمته.

ابتدأ العمل صباح اليوم التالي. نصبت الصقالات. وبدأ العاملون برفع اكوام التراب ووضع الاشرطة والعلامات. كان طه يراقب العمل ويشرف عليه بنفسه. واصبحت ارض الرافدين أشبه بحسناء بابلية جميلة واقعة في حب طه. تكشف له عن محاسنها وكنوزها. انه الاكتشاف العظيم الذي سيبهر العالم. انها شادوبوم تعود للحياة مرة اخرى. بدأت الجدران بالظهور. ووضحت معالم المعبد الاكدي باسوده الاربعة العظيمة التي تنتصب عند مدخليه والتي تحرس عرش عشتار حامية بلاد الرافدين.

دخل طه الى المعبد ليجد الكنز العظيم. شادوبوم. ان طه يعرف معنى الاسم. انه يعني " بيت الكنوز ". وكان كذلك حقا. سرعان

ما نزلت الدموع من عينيه. اذ ادرك طه ما كان يراه اجداده كنزا. انها اكثر من الفي رقيم طيني. وثقت كل شئ. انها لا تقدر بثمن. قانون مملكة اشنونا ونظريات المثلثات التي نسبها اقليدس لنفسه. قصائد وقصص ونظريات في الرياضيات والكيمياء. سجلات للمواريث والاراضي والضرائب. كان الكنز عند البابليين والسومريين ليس ذهبا ولا فضة ولا جواهرا. انها المعلومات، العلوم، الآداب والقوانين. المعرفة والحكمة... هذا هو كنز البابليين عندما ساد حكمهم الدنيا.

4 - ليلة رقد كلكامش

- **الزمان: الثاني عشر من نيسان سنة 1962م.**
- **المكان: شارع المتنبي، بغداد .**
- **الوقت: العاشرة صباحا.**

أخيرا، اتى اليه صاحب المطبعة وهو يحمل ثمرة احلامه الثانية والكبيرة. ان طه لم يكن منقبا عن الآثار فقط. انه كاتب وباحث وحالم في المقام الاول. اكتمل الكتاب الذي حلم به سنين طويلة وافنى فيه عمره. اطلع طه بحكم قراءاته في التاريخ عن ملحمة الالياذة اليونانية والمهابهارتا الهندية. تلك الملحمتان التي يتغنى بها العالم كله. لم تكن الدنيا تعرف بأن اول ملحمة كتبها الانسان كانت في بلاد ما بين النهرين. وانها كتبت قبل الفي سنة من ملحمة هوميروس الشهيرة.

انها الملحمة التي جرت في أوروك عاصمة سومر. ملحمة كلكامش. حارس أوروك المغوار. ابتدأت قصة الكتاب في ثلاثينات القرن الماضي عندما وصلت أولى بعثات التنقيب الى مدينة " نفر "، وهناك وجدوا تلك الالواح الكبيرة التي تحكي الملحمة. تلقفها

كريمر باهتمام، ولكن كما يبدو فان اينانا الهة سومر العظيمة لم ترد له هو ان يرويها بل ارادت ان يرويها واحد اخر من عشاقها. انه طه.

ومنذ ان تعرف اليها راحت تلك الملحمة تغويه وتملك شغاف قلبه. كان يجلس لساعات وايام وسنين طويلة وهو يترجم اللقى الطينية السومرية والاكدية والبابلية، ويكتب. وكأن اينانا الهة سومر العظيمة تجلس الى جواره لتحكي له القصة ولتعلمه اسرارها وتفك طلاسمها. اول ملحمة كتبها الانسان. كتبت هنا في بلاد الرافدين في أوروك قبل خمسة الالاف سنة.

هناك في أوروك عاصمة سومر وقعت الملحمة. بطلها الاول كلكامش حارس أوروك المغوار، والثاني صديقه الوفي وخليله أنكيدو. وكما يحكى فان كلكامش هو ابن الالهة ننسون حفيدة الاله سين اله القمر. اما والده فهو لوكال بندا. واحد أخر من مغاوير أوروك التي تحبهم الالهات العظيمات. والذي عشقته وتزوجته راشننكال. الهة العالم السفلي، الهة الموت والغضب والحزن. انها اخت اينانا الكبرى وعدوتها الأولى. ومن هنا جاءت العداوة بين كلكامش واينانا التي أرادت ان تتخذ كلكامش عشيقا لها نكاية بأختها الكبرى وغريمتها.

ان قصة كلكامش هي قصة الانسانية جمعاء. انه السؤال الذي

يشغل كل انسان (لماذا يجب أن اموت). سؤال طرحه كل البشر سرا او خفية. انها القصة القديمة. عندما طلب انليل الاله المنفي من انكي آيا اله الماء والحكمة خلق الجنس البشري ليخدم الالهة. وطلب منه ان يجعل حياتهم محدودة. وهو ما قاومه انكي الذي يحب البشر كثيرا لأنه هو من خلقهم. لذا حاربته الالهة كلها وطردوه ونبذوه. وجعلوا البشر يكرهونه بينما هو اكثر من يحبهم. ان انكي بعلمه وحكمته لم يرضى بأن يخلق شيئا ناقصا. ولم يقف معه سوى عشيقته اينانا اهة سومر العظيمة وابنه مردوخ اله بابل العظيم. وبينما كانت المعركة محتدمة في السماء. كان جنس الانسان يبني مجده.

ترك كلكامش أوروك مدينته الحبيبة برفقة خليله وحبيبه انكيدو ليبحث عن الخلود. قطع جبال سوريا ووصل الى لبنان ارض اشجار الأرز. هناك وفي طريقه عرضت عليه اينانا الخلود مقابل ان يكون عبدها وعشيقها ولكنه رفض باستعلاء وتكبر. فما كان من اينانا الا ان تسلبه صديقه الوحيد. وطلبت من أنو ابيها اله الشمس ان يصنع لها الثور السماوي العملاق (خمبابا) المنتقم الجبار. والذي ستكون على يديه نهاية أوروك العظيمة. يا ترى هل كان كلكامش مخطئا برفضه عرض اينانا؟ وما هو الخلود؟ وكيف يقهر الموت؟ هذا هو السؤال الذي بحث عنه كلكامش واجاب عنه طه بعد خمسة الالاف سنة.

ظل طه يجمع شتات تلك الملحمة العظيمة التي أطاحت بالملاحم الاخرى كالياذة هوميروس ومهابهارتا الهند. كشفت تلك الملحمة عن حياة العراقيين القدماء وعاداتهم وافكارهم. كانوا اول الناس الليبراليين والعلمانيين على كوكب الارض. ولم يكن هناك شئ يقدسونه على الحقيقة أكثر من حرية الانسان في ان يعيش كيفما يشاء بدون قيود.

ها هو طه الان في خريف العمر. يقف على احد اسوار قصور نبوخذ نصر. يتكأ باحدى يديه على عصاة أمه القديمة، وويحمل باليد الاخرى ملحمته العظيمة. حقق لجده كلكامش الخلود. ها هو يقف مع حبيبته والهته الجميلة اينانا اهة سومر العظيمة، وانكي خالق البشر ومحبهم اله الماء والحكمة، ومردوخ اله بابل العظيم اله الحديد والنار. ان طه لم يعد انسانا ايضا ... انه معهم ... انه واحد منهم.



القصة الثالثة

مغامرات الفضاء

مغامرات الفضاء

وصول سفينة الفضاء

ركض سبتي الى باب المنزل الرئيسي ليفتحه. اذ كان يعلم بأن والده وحامي مملكته الصغيرة ذهب ليشتري اول سفينة فضاء سيركبها. الحقيقة انها لم تكن سوى سيارة فولكس فاغن حمراء مصنوعة سنة 1988 في دولة البرازيل البعيدة التي لم يكن يعرف اين هي. كانت اول سيارة تقتنيها العائلة. لم يكن سبتي طفلا عاديا. اذ حرص والده الدكتور والاستاذ الجامعي عبد الرحمن ان ينشئ ولده الوحيد نشأة خاصة وان يعده ليكون عالما وباحثا مميزا من بعده. وربما اصبحت تلك لعنته الكبرى بعد ذلك. نشأ سبتي في دولة علمانية تزاوج فيها الفكر القومي والاشتراكي. وهي خلطة تنتج بلدا متفجرا في تقدمه وابداعه مثل اليابان والمانيا في الحرب الحرب العالمية الثانية ولكنها تكون متفجرة في انهياره وتشظيه ايضا. تربى عندما كانت فترة برامج الاطفال تعرض مغامرات

الفضاء والغواصة الزرقاء وفارس الفضاء حيث لم يكن فيها مكان للخرافات والغيبيات الساذجة.

كان عبد الرحمن حريصا على ان يشتري لولده الكتب الحديثة وخاصة في مجال الحاسوب وهو الذي كان يرى فيه مستقبل العالم. وكان يريد لولده ان يكون عالما فيه. لم يتوانى عن شراء كتاب ساندرز الحاسبات اليوم لولده رغم ان سعره كان خمسون دينارا في ذلك الوقت. وجلب له اول حاسوب شخصي صنع في العراق وكان يحمل يحمل اسم الوركاء. يالها من مصادفة ان يحمل اول حاسوب هذا الاسم. الوركاء، اول مدينة في الدنيا. اول حضارة تنير مشعل النور للانسانية. كان سبتي اثناء ذلك يعيش في عالم منفصل عن عالم الحقيقة. اذ لم يلعب مع اولاد الجيران في الشارع، ولم يركب الدراجة الهوائية ولم تكن تستهويه أصلا. كان يحلم بالعقل الالكتروني الذي صنعه الدكتور آمون لكرانديزر. ويتخيل نفسه ضابط الحربية ليث على الغواصة الزرقاء التي ستطير الى السماء لتدمر بصواريخها اقمار الغوثام الصناعية.

ورغم ان عزل طفل عن عالمه المتخلف قد لا تكون الطريقة المثالية للتربية الا انها بالتأكيد كانت ما صنع التجربة المميزة لحياة سبتي. كان سبتي يرى بسذاجته وبساطته في تلك السيارة المتواضعة

صحنه الطائر الذي سينقذ به العالم من الاشرار. اعجب بكل انواع العلوم الا انه تملكه شغف خاص نحو الفضاء والنجوم حتى انه كان يحلم بأن يكون اول رائد فضاء عراقي. وهناك قرر ان يدرس علم الفلك. كان يدرك مع كل يوم يمضي تخلف الكلية التي كان يدرس فيها الا انه لم يكن مهتما بمن حوله. كان يفرح كثيرا عندما يمسح التراب عن الكتب الانكليزية القديمة في مكتبة الكلية. ويثير استغراب زملاؤه الذين كانوا يقضون اوقاتهم في النادي الطلابي وفي اقامة العلاقات العاطفية العابرة. وكان مدرسيه اكثر استغرابا منهم وهم يرونه يفترش ارض الممرات في كليته منفقا وقته في قراءة تلك الكتب.

كان مفتونا بالقمر والشمس والنجوم، انهم اصدقاؤه الحقيقيون. ربما لأن اجداده البابليين والسومريين كانوا مفتونين بها وكانوا يعبدونها. وكعادة الدكتور عبد الرحمن في تحقيق امنيات ابنه الوحيد. جلب له تلسكوبا محمولا وحقيقيا، رغم أنه كان ممنوعا في الدولة آنذاك. وكم كانت فرحة سبتي غامرة وهو ينظر منه الى القمر والنجوم. وعندما ينام الناس في بغداد. كان سبتي يعقد جلست أنسه الغامضة والجذابة هو وتلسكوبه الصغير والقمر والنجوم. يسجل في دفتره الصغير كل ملاحظاته التي لا اشك ان مدرسيه لم

يكونوا ليفكروا فيها او حتى ليستمتعوا بها.

كان الدكتور شاكر الناصري هو الوحيد من بين اساتذته الذي يرى فيه تلك الشعلة ويغذيها. وكما يقول العرب (الطيور على اشكالها تقع). وقد وقعت. ففي عالمنا العربي والاسلامي المتخلف تقع الطيور دوما بدلا من أن تحلق في الهواء. تقع لأن الاغبياء حريصون على اصطيادها وقتلها. كان شاكر يستمتع بتلك المناقشات الحارة مع سبتي. يقول له (يا سبتي ستصبح يوما ما ستيفن هوكنغ العراق). تخرج شاكر من أمريكا. وسرعان ما فصل من عمله وساءت حالته. واضطر الى ترك العراق أخيرا رغم انه كان من عائلة الرئيس العراقي، الا ان احدا لم يكن مستعدا لتقبل افكاره المتحررة.

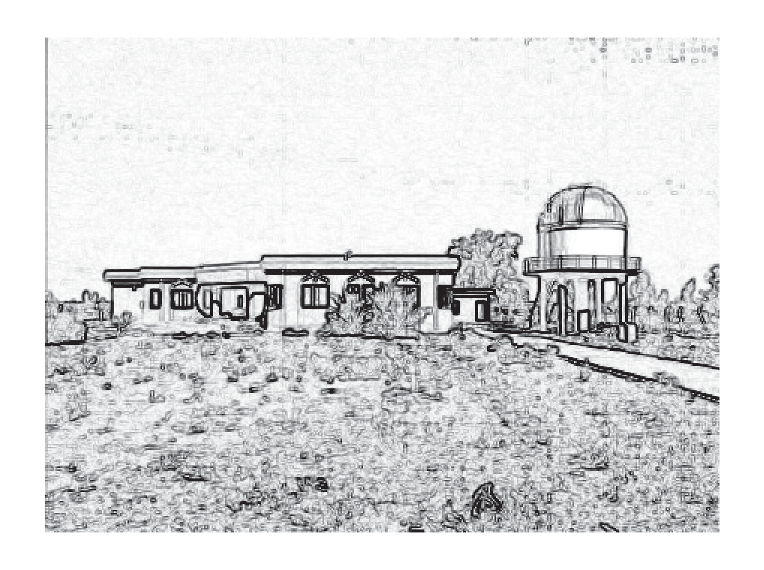
صنع عبد الرحمن وشاكر مأساة سبتي من دون ان يعرفوا. اذ في الحقيقة لم يعد سبتي يعيش على الارض بل كان يسافر كل ليلة في مجراته العملاقة ويطأ كواكبها المذهلة التي لم يصل اليها انسان ابدا. (أريد ان احصل على وظيفة في كليتي يا أبي، أريد ان اعمل في مرصد البتاني الذي في الطارمية). هذا ما قاله لوالده عندما تخرج من كليته. وكان هذا افضل ما كان يمكن الحصول عليه. ومن هنا بدأت الحرب وبدأ مشوار العذاب.

ستيفن هوكنغ في الطارمية

كان العمل انتهى تقريبا في مرصد البتاني الذي انجز في موقعه في منطقة الطارمية ليكون اول مرصد فلكي حديث في العراق والحق بجامعة بغداد. ذهب سبتي ليستلم عمله ويباشر فيه. وهو اعز مكان على قلبه في بلاده، بل وربما اغلى حتى من منزله. اصبح قادرا فيه على تحقيق احلامه. لم يكن مرصد البتاني مثل مرصد بالومار في امريكا ولكنه كان افضل من لاشئ على أية حال. كان فرحا، يتأمل الاته ويدرسها، ويحاول الوصول بامكانياتها الى اقصى الحدود. وعندما يعود لمنزله يخطط بشغف ساعات طويلة لما سيفعله في اليوم التالي. يصل الى عمله صباح كل يوم وكأنه أول يوم. يفيض حيوية ونشاطا. يعمل على تشغيل الالات من التاسعة صباحا وحتى الثانية ظهرا.

اخيرا أقنع مدير المرصد وهو موظف قديم وتقليدي انقرض اقرانه منذ الزمن الذي انقرضت فيه الديناصورات بأن يسمح له بالبقاء ليلا. اذ عادة ما ترصد القبة السماوية ليلا وليس نهارا. وكان سبتي يكاد يكون مع الشيخ ابراهيم حارس المرصد الوحيدان

اللذان يبقيان ليلا. اصبح سبتي يعيش فعليا في المرصد. يعمل ويدرس ويأكل ويقرأ ويكتب وينام فيه.



لم تكن الحياة مثالية في مرصد البتاني بالنسبة لسبتي. اذ كان مديره الديناصور المنقرض الدكتور سعد الهيتي يتلذذ بسرقة أفكار سبتي غير التقليدية عن علم الفضاء. انه في الحقيقة اشبه بطفيلي عضوي متعفن. اما زملاؤه، فلولا سبتي لم يكن حاجة لوجودهم في المرصد اصلا ولم يكونوا ليحدثوا اي فرق. الحقيقة ان الشخص الوحيد الذي كان يؤدي خدمة في المرصد الى جانب سبتي هو الحارس ابراهيم الذي كان يحرس المرصد. كان قادرا رغم حداثة

سنه ان يشغل المؤسسة بأكملها.

كتب خمسا وثلاثون برنامجا خاصا بعلم الفلك الى حد ان مديره المتخلف اضطر لطلب اجهزة حاسوب اضافية. وعمل على اصدار مجلة المرصد الخاصة بعلم الفلك. ورغم ان اسماء كل من كان في المرصد موجودة فيها الا انها في الحقيقة لم تكن الا مجهودا فرديا لسبتي. كان يضع اسمائهم على المقالات التي يكتبها من اجل اكمال العدد واصداره. ومع كل تلك الصعوبات والمعوقات في عمله، فضلا عن تدخل المنظمة الحزبية بجهالها في عمل المرصد الا ان سبتي لم ييأس.

كانت ساعة واحدة في الليل مع المقراب كفيلة بأن تنسيه همومه وكل الكائنات الطفيلية التي تعتاش على افكاره التي كانت تسبق قدرتهم العقلية بسنين ضوئية. كان القمر يبهره بجماله. وتلك المجموعات النجمية تحمله الى عالم ليس له بداية ولا نهاية. تتغير فيه كل مفاهيم البشر التقليدية وتفقد معانيها. ويصبح الوقت ضوءا. وتختلف جميع المقاييس. وتتشظى جميع نظريات الفيزياء المحدودة التي آمن بها الانسان لمئات السنين. ويبدو ان الكوارث التي خطتها الاقدار في لوحها الذي لا يعرف احد اين هو لم تكن لتستثني مرصد البتاني وسبتي من بركات مصائبها.

احتل الامريكيون العراق عام الفان وثلاثة. وانطلقت موجات الغوغاء من الناس لتسرق كل شئ ومنها مرصد البتاني. كانت تلك اول معركة شرسة. هرب جميع العاملين الى بيوتهم خوفا من الحرب. هنا ظهر المدير الحقيقي لمرصد البتاني وعالم الفضاء الحقيقي لمرصد البتاني. لم يبق في المرصد سوى سبتي والحارس ابراهيم.

طوق الحمقى مرصد البتاني. ولكن سبتي كان اغلق الباب الرئيسية باحكام. وحمل بندقية الشيخ ابراهيم القديمة ووقف وحده خلف الباب. كان مستعدا للتضحية بحياته من اجل مرصده. كان المرصد في الحقيقة هو كل حياته. صراخ وشتائم واطلاق عيارات نارية في الهواء من كلا الطرفين. بدأ يدخل في قلب سبتي شعور بأن هذه المعركة خاسرة، ولكنه لم يكن مستعدا للاستسلام. حاول يائسا الاتصال برئاسة الجامعة لطلب النجدة.

دخل الغوغاء حرم المرصد. حمل بندقية ابراهيم لا اراديا وتبادل معهم بعض الاطلاقات. جاء احد المهاجمين ببندقية متوسطة الحجم وراح يطلق الرصاص بجنون على المبنى. اصابت احدى الرصاصات ركبة سبتي اليمنى. لم يكن ليتصور

الالم الناتج عن تلقي رصاصة من رشاش PKC في الركبة. سحبه ابراهيم بعد ان سقط على الارض. وهناك كان ما شاهده سبتي أشد ايلاما من الرصاصة التي اصابته. رأى حلم حياته يحترق امام عينيه. قام احد الغوغاء برمي باب حجيرة الافلام الحساسة بقنبلة يدوية مما ادى الى احتراقها بكل محتوياتها. كانت دموع الحزن التي تنزف من عينيه اشد الما واكثر غزارة من الدماء التي كانت تنزف من ركبته.

الهدف اصطدام

كان العام الفان وثلاثة الاسوأ من بين كل الاعوام. كان انتكاسة كبيرة، وكانت الخسائر كبيرة أيضا. ولكن كما يقولون فان الحياة ستجد طريقها وستستمر. خرج سبتي منها باصابة دائمة. واصبح مجبرا على ان تلازمه تلك القطعة المعدنية في ركبته فضلا عن عكاز والدته الذي كان يعتز به والذي اصبح رفيقه الدائم. انهار المرصد ورغم أنه كان بالامكان اصلاحه الا ان الادارة الفاسدة في الجامعة لم ترغب في اصلاحه. وضاع مجهود كبير للسنين من قبل الخبراء الالمان والعراقيين من دون ذكر الخسائر المادية والعلمية.

اما سبتي فاصبح بطلا ولم يستطع حتى اعداؤه وحساده الا الاعجاب بشجاعته ودفاعه عن المرصد. أخيرا، قررت ادارة الجامعة الغاء المرصد ونقل ما بقي من المقراب الى مخازن رئاسة الجامعة. ونقل كافة كادر المرصد الى قسم الفضاء والفلك في الجامعة. قرار اتخذ شأنه شأن باقي القرارات لتخريب العراق اسما ومكانة. تتخذه ادارات في مختلف مفاصل الدولة. ادارات جاءت بعد زمن الاحتلال. كل مميزاتها الطائفية والحزبية المنافقة.

وقف في زاوية بعيدة، ازداد الثقل على عكازه الخشبي. ثقل الجسد وثقل الهموم. انه اسوأ يوم في حياته. اليوم الذي اعلن فيه عن وفاة مرصد البتاني في بغداد المرصد الفلكي الوحيد العامل في العراق. وقف يتأمل العمال الحمقى بلحاهم العفنة وهم يفككون في ثلاث ساعات ما احتاج من الخبراء الالمان الى ثلاث سنوات لتركيبه. ظل الموظفون يراقبون سبتي وهو يسبل دموعه وينظر بحقد متفجر الى مسؤول الخدمات في الجامعة. كانوا ينتظرون من سبتي ان يفعل شيئا. ولكنه كان يدرك باحساسه ان المعركة مع قوى التخلف خاسرة.

ادار وجهه وخرج من موقع المرصد. توجه من الطارمية الى مقبرة السلام في النجف حيث دفن والده. وقف على قبره حائرا. كان يتمنى لو أن والده بقي حيا ليعينه بحكمته على تحمل هذا الموقف الاليم. كان العام الفان وثلاثة عام الهزائم والانكسارات. قتل الحمقى الدكتور عبد الرحمن والد سبتي. ودمر نفس اولئك الحمقى مرصد البتاني. لم يكن سبتي من النوع الذي يهزم بسهولة رغم كل شئ. انه شخص مصمم للمواجهة. جيناته مصممة هكذا. اخذت الاقدار منه سلاحه الاكبر، مرصد البتاني. ولكنها اعطته سلاحا اخر ربما اكثر قوة. انه سلاح الحاسوب والانترنت. وهو امر

يجيد سبتي استخدامه اكثر من اي شخص اخر.

تحول مجرى الحياة بشكل دراماتيكي وغير متوقع. ولم يعد الامر مجرد حب للفضاء او عشق للسماء او النجوم. اصبح حربا بين منظومة فكر حر ومتقد. يتمتز بمنهج علمي وعلماني وتشكيكي. ومنظومة متخلفة تتخذ من الدين ترسا ورمحا لتغرق البلاد في الفوضى والتخلف. كان من اوائل الباحثين الذين برمجوا موقعا على الانترنت. واتصل بالكثير من مراكز ومؤسسات الفضاء في العالم. ورغم ان رحاة الحرب التي كان يقودها حزب المتخلفين الطائفيين في الجامعة كانت دائمة الدوران تحاول سحقه، الا انه كان قادرا على المواجهة. بل انه في بعض الاحيان كان يخطف الاظواء بحركاته ونشاطاته الصغيرة. ومع انه لم يكن قائدا بأمر الرجعيين والطائفيين الا ان الجميع يعلمون انه خلق ليكون مميزا.

مرت الايام طويلة وحزينة. واصبح الصمت مؤلما بقدر الكلام، والحياة مؤلمة بقدر الموت. وصار الحكم الديني يستفحل ويتغول في بلاده العريقة كل يوم. وتنهار تلك الحضارة العظيمة التي تضرب بجذورها لسبعة الاف سنة خلت حتى لا يكاد احد يتذكرها. لم يعد سبتي يخشى الموت لأنه مات الاف المرات قبل ذلك. اكمل كتابه المثير «نظريات الوقت». نقد فيه ما عرف بالتقاويم التي عرفتها

الحضارة الانسانية. واطلق نظرية جديدة ربط فيها الوقت بالضوء. وثارت عاصفة رجال الدين من حوله. اتهموه بالكفر والزندقة، واخفهم اتهمه بالالحاد.

استماتت سبتي في الدفاع عن ارائه متحديا كل رجال الدين وعلماء الفيزياء الفلكية ان يقدموا برهانا منطقيا ينقض افكاره ونظرياته. ولم يكد مفعول الصاروخ الاول الذي اطلقه ينقضي حتى كان منتهيا من كتابة الثاني عن نشأة الكون. الذي قدم فيه نظريات تنسف بشكل غير مباشر نظريات الخلق التي جاءت في اسفار الانجيل وسور القرآن. اشتدت شراسة رجال الدين والحمقى الذين بلا عقل. وهنا بدا ان الصدام صار حتميا.

الشبح الراقص فوق المرصد

كان سبتي بدأ في تهيئة ادوات حربه القصيرة المدى منذ وقت. ارتدى قلادة مميزة بشكل ظاهر ووضع خاتمه الاحمر البراق في يده اليسرى. ثم بدأ صفحته الثانية عندما لبس سوارا ملونا. كان سبتي يعشق النساء الجميلات. ويتمنى ان يعيش قصة حب مع اميرة من اميرات بلاده الجميلات. وتلك الاغاني الراقصة التي يسمعها دوما. وكأن كل ذلك لم يكن كافيا في بقايا جامعة تحكمها الميليشيات الدينية وفي بلد استباحه دين القرون الوسطى بخرافاته.

أطل على الجميع في أحد الايام باطلالة مختلفة في مكان عمله. اثار اعجاب الجميع واستغرابهم في ذات الوقت. غير لون شعره الى الاحمر النبيذي ذلك اللون الجنسي المثير. وأصبح بشخصيته حديث زملاؤه في العمل. وشيئا فشيئا بدأ سبتي يتحول الى ايقونة للحرية والعلمانية والثورة على طغيان رجال الدين وظلمهم وجهلم. رمز ضد المجتمع الذكوري المتخلف. وهنا كان لابد لقوى الظلام ان تتدخل وتضع حدا بأي سبيل ممكن. وبدأ العدو يشن هجومه المضاد.

بدأت المرحلة الاولى برسائل التهديد، وبكل الاساليب التي

يمكن ان تتخيلوها. اخيرا اتصل احد القادة في تلك الجماعات برئاسة الجامعة. طلبوا لقائه بعد ذلك. ذهب سبتي اليهم. كانت محكمة التفتيش قد نصبت. وكان هناك مساعد رئيس الجامعة ورئيسة قسمه واحد الاساتذة. وما ان جلس حتى بادره المساعد قائلا.

د. فائز (مساعد رئيس الجامعة): سبتي اني ادري بيك انت انسان مميز، لكن دا تخلق مشاكل.

سبتي: ليش دكتور!

د.فائز: اول مرة لبست كلادة وكلنا عادي. وبعدين سوار وهم سكتنا. لكن تصبغ شعرك احمر ... هاي واكفة.

سبتي: دكتور اكو مادة بالدستور العراقي تمنع واحد يصبغ شعره احمر، او قانون بالتعليم العالي يمنع واحد يصبغ شعره احمر؟

د.حوراء(رئيسة قسمه): سبتي اكو رجال يصبغ شعره احمر؟ انت شتريد تثبت ولأي ناس؟

سبتي: انتو شنو اللي دتناقشون بيه ! وين شهاداتكم ؟ وين عقلكم ؟ انتو اساتذة !

نادر: سبتي احنا عايشين بالعراق. انت تريد تنتحر؟ احنا نحبك وما مستعدين نفقدك.

سبتي: اني حر. اخسر حياتي ولا اخسر حريتي.

د.فائز: سبتي ... انت مو حر.

سبتي: مو مهم دكتور. المبدأ هو المهم. اني انسان ومن حقي اعيش مثل ما أريد.

د.حـوراء: سبتي احنا خايفين عليك. سبتي افهم. نهايتك مكتول ومرمي بالزبل.

سبتي: البلد اللي يكتل اساتذة جامعاته هاي سبه عليه ووسام على صدري.

سبتي: انتو ما مطلوب منكم شي. واني ما احملكم شي. واني اتحمل مسؤولية اختياري.

نادر: سبتي اترك العراق اذا متكدر اتعيش بيه وتتأقلم وياه. سافر للخارج وعيش برا، عيش حياتك.

هنا وقف سبتي منهيا الاجتماع: هو هذا الحل اللي جادت بيه قريحتكم. انهزم من وطني!؟ مع الاسف انتو اساتذة. هاي تاليها.

سبتي: وشنو اللي راح يبقى من العراق اذا كلنا انهزمنا وتركناه للمتخلفين وكلابهم الجهال. منو راح يبنيه ومنو راح يدافع عنه.

لماذا تتكرر القصة دوما في العراق. لماذا يستكين القوي والمميز؟ لماذا يحسب الامور بشكل خاطئ؟ هل هو نوع من الغرور والتكبر؟ ام هو سوء لتقدير الامور؟ او رغبة منهم لأن يصبحوا ابطالا،

والتضحية شرط من شروط البطولة.

كان يوما عاديا مثل باقي الايام. وكان سبتي عائدا الى منزله القريب من الجامعة سيرا على الاقدام كعادته. اذ انه كان يكره السيارات. يكره حتى ركوبها، فكيف بقيادتها. خرج عليه من اللامكان أربعة ذئاب بشكل آدمي. حمل أكبرهم سنا ماكنة للحلاقة، اما الاخرون فاكتفوا بسكاكين صغيرة. قام اكبرهم بحلاقة شعره الاحمر الجميل. وقام الاخرون بطعنه برجليه بعد ان ثبتوه. لم يكن سبتي راغبا بالمقاومة. لم يصرخ، لم يستغث بأحد. وحتى لم يطلب الرحمة من مهاجميه.

تركوه على الارض مخضبا بالوانه الحمراء مثل الامام الحسين بن علي. غارقا بالدماء الحمراء حول رجليه من الاسفل، وغارقا بشعره الاحمر المتناثر على الارض من الاعلى. لم يكن الهجوم مصمما لقتل سبتي. لا تريد تلك الميليشيات ان تصنع بطلا اخر. انها تريد ان تحطم الابطال، وتبقيهم احياء. حتى يكونوا عبرة حية لمن يفكر في تجاوز الخطوط الحمراء.

زحف بتثاقل وبما تبقى له من قوة نحو اقرب منزل. خارت قواه واعتصر الالم نفسه. اضطر للبكاء. لم يكن قادرا على النهوض، وحتى الوصول الى جرس الباب. خرج من الدار المجاورة شاب

صدفة ورأه. وسرعان ما طلب الشاب اهله، وخرج اهل الشارع يتنادون. حملوه الى مستشفى الكندي. لم تمض بضع ساعات حتى تجمع حوله في الطوارئ بعض الاهل والاصدقاء. نزف دما كثيرا. عينان جاحظتان. كان أكثر المتضررين من الهجوم قلبه الذي يعاني من تصلب في الشرايين.

احترقت صفحات التواصل الاجتماعي وهي تضع صورتان. واحدة لشاب جميل الروح بابتسامته وسواره وقلادته وشعره الاحمر. والاخرى لبقايا انسان حليق الشعر تغطيه اللفائف الطبية كمومياء فرعونية. وكالعادة اختلف العراقيون في امره، الا انهم اتفقوا على ان الاعتداء الجسدي عليه امر مرفوض. ولم يكن سبتي يطلب أكثر من هذا. ادانة شعبية للحركات الاسلامية المسلحة في العاصمة. مر شهر كامل ونسي الجميع قصة سبتي، رغم انها حفرت في ذاكرة العراقيين رصيدا اكبر لحب الحرية ورفض التعصب.

دخل من الباب الرئيسي للجامعة مستندا على عكازة والدته الخشبية القديمة التي كان يعتز بها كثيرا. كانت الابتسامة ترتسم على وجه كل من يراه. كأن الجامعة كلها كانت في حالة فرح. تناقل الجميع بسرور وبشكل خفي الخبر(سبتي عايش، سبتي بالجامعة، اليوم سبتي مداوم، مدريتوا سبتي اجا). يسير متثاقلا بسبب الجلطة

التي اصابته نتيجة الهجوم الاخير مرتديا قلادته وسواره وقميصا احمر مثيرا. توجه الى مكتب رئيس الجامعة. كان نجم الحضور. دخل اليه حاملا ملفا مغلقا.

فاجأ سبتي الجميع. اذ رغم اصابته الا انه لم يترك حلم حياته. استغل فترة نقاهته للاتصال بوكالات الفضاء الدولية. التي انصت علماؤها لقصته وطلبه. شرح لهم طلبه بتجرد وشغف. كانت الانترنت كلمته السحرية. وبعد مراسلات مع علماء الفضاء في امريكا واوربا واستراليا. وبعد اتصالات مع رئيس الوزراء العراقي ورئاسة الجمهورية. نجح سبتي في اقناع وكالات الفضاء بتمويل مشروع مرصد البتاني وارسال مرصد جديد لبغداد. ونجح في اعادة ارض المرصد الى جامعة بغداد.

ومثلما فعل عالم الاثار المشهور طه باقر في العهد الملكي فعل سبتي بعد قرابة الثمانين عاما. صنع لافتة اي اشارة كبيرة وذهب الى موقع المرصد في الطارمية. وضعها هناك. ولم تمض اسابيع حتى بدأ العمل. ودبت الحياة من جديد في مرصد البتاني. بدأت سيارات الحمل الكبيرة تنقل معدات المرصد الجديد التي جاءت من كل انحاء الدنيا من ميناء البصرة الى الموقع. وعاد الفنيون والعاملون من جديد يعملون. اما سبتي فوضع كرسيه البسيط عند البوابة الرئيسية.

جلس مع صديقه الحارس الشيخ ابراهيم. يتأمل البناء الذي يتكامل كل يوم. يحل المشاكل، يوجه العاملين بل ويركب بعض الاجهزة بيديه. قارب العمل في المرصد على الانتهاء. جلس لوحده امام مرصده الجديد. شعر بالرضا وبأنه مستعد لمغادرة هذه الحياة ليكمل رحلته في الفضاء الفسيح. كان العدو الاخطر قام بهجومه الاخير. جلطة اخرى وانتهى كل شئ. وجدوه ميتا وهو جالس امام مرصده قبل بضعة ايام من اكتماله.



قدم زملاؤه طلبا لادارة الجامعة لتغيير اسم المرصد. وضعت الشارة الجديدة. وحضر المهتمون وعلماء الجامعة وطلبتها حفل الافتتاح الكبير. كتب عليها (وزارة التعليم العالي والبحث العلمي– جامعة بغداد–مرصد سبتي للفضاء). ومازال القمر يشرق كل يوم في ليل بغداد، واحيانا يكون احمر اللون مثل لون شعر سبتي. ومازالت النجوم تتلألأ في سماء المرصد مثل قلادة سبتي. ومازال الشيخ ابراهيم يحرس المرصد ببندقيته القديمة. ويحلف بأغلظ الايمان انه مازال يرى روح سبتي ترقص فوق المرصد في الليل.

القصة الرابعة

كنيسة النور

كنيسة النور

الارواح الضائعة

وقف امام المرآة يتأمل بدلته الجميلة. كان يحب ان يكون اكثر الرجال اناقة. وارتدى احدى ساعات اليد التي لديه. انها ساعته من نوع لونجين الفضية العريضة السوار والكبيرة والتي كان يفضلها. كان يحب ساعات اليد الفاخرة ويتمنى بأن تكون لديه ساعات جميلة اكثر. انه منذر عبدالوهاب محمود أمين المكتبة بدار الكتب والوثائق العراقية. جذبته بحنان نحوها وراحة تعدل ربطة عنقه. انها زوجته سندس فؤاد الراوي. يا ترى هل كانت تحب قيافته واناقته اكثر مما تحبه. كانا والدا منذر وسندس معروفان وذي شأن في المجتمع. كانت كل من العائلتين تنتظمان في سلك موظفي الدولة التقليدي لاجيال. كان منذر يحلم بأن يكون يوما ما اداريا ناجحا مثل والده. وكانت سندس تحلم بأن تكون مثل والدتها او والدة منذر سيدة مجتمع راقية. كان منزل العائلتين مفتوحا للناس. ولا ينفك الزوار

يأتون ويذهبون، اما لقضاء حاجاتهم او تملقا والاقل القليل حبا.



ولكن الاقدار في لوحها المحفوظ كانت على وشك ان ترسم قصة اخرى في اتجاه مختلف تماما عما خطط له منذر وسندس. انه الخامس من نيسان في العام الفان وثلاثة. كانت الاجواء مشحونة بالتوتر في بغداد. حتى الطقس كان معاكسا لها ولأهلها. هبت عليها عاصفة ترابية غريبة. لم يشهد لها البغداديون مثيلا. كان الطقس وحده يشي بأن امرا جللا سيحدث. طبول الحرب تدق في كل مكان في الدنيا. وكأن الشيطان استجمع كل حلفاؤه على الارض.

أما بغداد فتركت وحيدة. لم ينزل الله ليدافع عنها. ولم يرسل حتى واحدا من ملائكته العظام ليدافع عنها. واكتفى كل الناس الطيبون في العالم بحبس انفاسهم. كانوا يظنون ان بغداد اقوى مما هي عليه في الحقيقة. كانت عشتار تغط في نوم عميق. لم يعكر صفو نومها الآمن كل تلك الطائرات السوداء العملاقة التي تشبه الغربان والتي احتشدت من الغرب الذي يعبد الشيطان، ولا تلك الذئاب السوداء المتربصة التي تحتشد من جهة الشرق. يا ترى هل كان الاله والملائكة وعشتار يعلمون بهذا القدر المر. يا ترى هل كان هذا القدر المر ضروريا لتتلالأ في الكون نجوم رائعة مثل منذر.

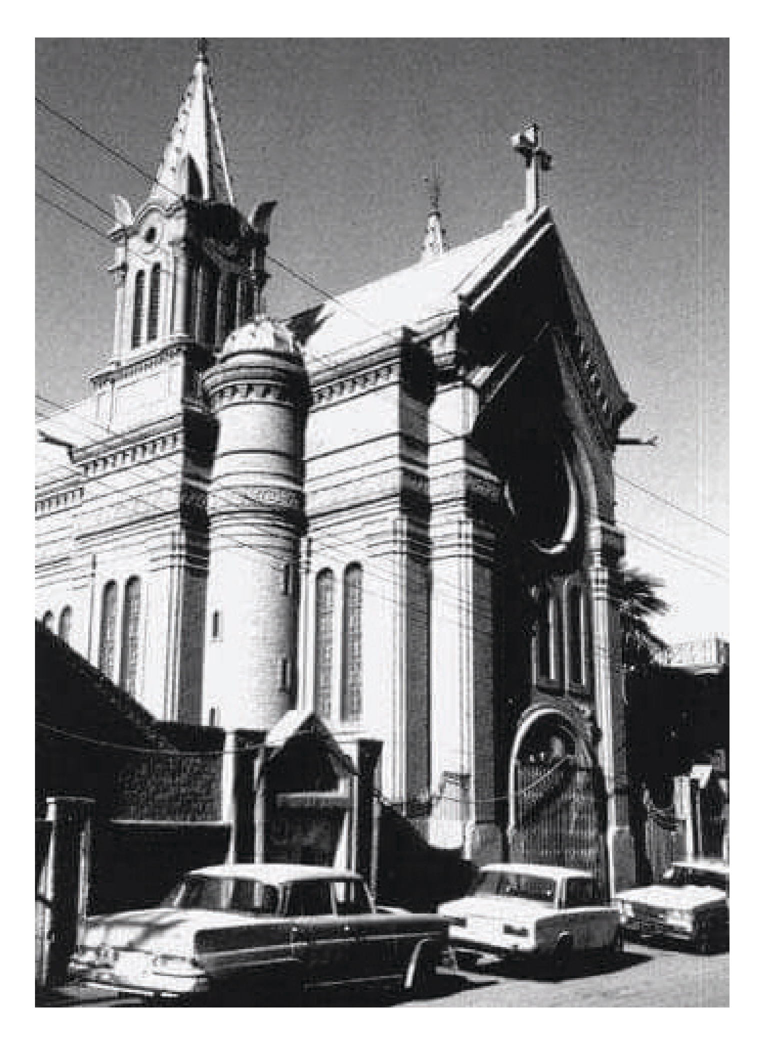
مرت الايام صعبة وطويلة وحزينة. وانهار كل شئ الماضي والحاضر وحتى المستقبل. وكأن ما حصل لم يكن كافيا. قررت زوجته سندس التي احبها اكثر من نفسه ان تتركه. والاكثر سخرية أنها هاجرت الى امريكا تلك البلاد التي سحقت بجيوشها بلاده وعالمه. وكأن هذا العراق بكبره وكل اشياءه الجميلة تهاوى على رأسه وحده. وحيدا ومهمشا، لا دور له في بلاده ولا مكانة. متهما بتهمة لا يعرفها ولا يعرف كيف يدافع عن نفسه منها. رحل الجميع، الاهل والزوجة والاقارب والاصدقاء. رحلت الدنيا كلها عنه. كان منذر يحب القراءة والكتابة كثيرا. ان الكتاب الشئ الوحيد

الذي لا يفارقه. وكان ما ينتظره أشد غرابة.

هنالك عالم بأسره ينتظره في مكتبة دار الكتب والوثائق العراقية. لم يترك كتابا لم يقرأه. رحلة الى كل الدنيا تتجاوز حدود المكان والزمان. غرق في حضارة سومر وبابل، وكأنه يتجول في مدينة النمرود. سافر بعدها باسطر الكتب قاطعا بحار الاحبار الى اثينا وروما لتبهره حضارة اليونان والرومان. نال الادب الهليني اعجابه. وعرج على حضارة مصر القديمة. تذوق الجمال في الادب الالماني بقصائده ورواياته. تعرف على المفكرين الكبار والتقى بهم من خلال كتبهم. شوبنهور ونيتشه، وراسل وكريغور ولن ينسى شكسبير وجيفرسون. رحلة عجيبة من ماركس الى فوكوياما. رأى تطور الفكر الانساني من القبيلة الى العالم الالكتروني الكبير. لكن الانهيار في بلاده كان كبيرا. تألم منذر لحال وطنه فهو كل ما بقي له من الاحباب. كان يختنق كل يوم أكثر واكثر. لم يعد أحد يأبه بالقراءة ناهيك عن الكتابة. سيطر الفكر الاسلامي المتعصب على بلاد ما بين النهرين، بل بوصف ادق اغتصبها.

مريم المجدلية في بغداد

استفاق من حلمه الغريب في الساعة الثالثة ليلا. كان حلما فريدا لم يتعوده في احلامه التي كانت تنتهي بكوارث عادة. وجد نفسه في الكون اللامتناهي حيث الظلام الابدي. ظلام بكل معنى الكلمة، السواد فيه هو السيد والغالب. وفجأة من عمق الظلام ومن اللامكان انفتحت طاقة نور صغيرة. تشع نورا أبيض صافيا وقويا جدا. لم يكن كافيا لهزم السواد، ولكنه كان دليلا. ومن ثنايا الضوء صوت لا ينفك يكرر اسما واحدا باستمرار. تريزة ... تريزة ... تريزة... . كان اشبه بضوء تلك الفنارات التي ترشد السفن التائهة في البحار عندما تهيج الامواج وتهجم جحافل الضباب. كانت روح منذر هي تلك السفينة التائهة. كان يتصبب عرقا رغم برودة الليل. وصار لديه يقين بأن صوتا يناديه من قلبه بان يبحث عن شئ في العراق مرتبط باسم تريزة.



ذهب في اليوم التالي الى عمله كالمعتاد. وكان له زميل من ابناء الديانة المسيحية. سأله ان كان هناك شئ في العراق مرتبط باسم

تريزة. شرح له زميله بان تريزة هو اسم لمريم العذراء في امريكا الجنوبية. وان هناك كنيسة قديمة في الارجنتين تظهر فيها السيدة مريم. وانه مرتبط باسم الام تريزا التي اصبحت قديسة، والتي افنت عمرها لرعاية الاطفال الفقراء في الهند. ورغم ان المعلومات كانت تبني منظومة الاسم الا ان منذر بقي يخامره يقين شبه مطلق بان الامر لا يتعلق بالارجنتين او الهند. انه يتعلق بالعراق. دخل على شبكة الانترنت ليبحث عن شئ في العراق مرتبط باسم تريزة. وكانت المفاجاة كبيرة جدا. عندما وجد كنيسة في بغداد تحمل اسم تريزة. ابهرته الصور التي شاهدها. وكأنه وجد كنزا. كنيسة تريزة والتي يعرفها العراقيون بكنيسة بيير باري في منطقة السنك. اصابته تلك الصور بالجنون. وراح يتأملها بعد ان علم بأنها مغلقة. سيطرت تلك الكنيسة على قلبه وروحه بشكل غريب. طلب من زميله ان يوصله الى من يستطيع ادخاله اليها.

ذهب اليه في الصباح . رجل كبير السن، وقور، حفرت الدنيا قساوتها على وجه. انه الاب بولس. لم يكن اللقاء وديا للوهلة الاولى ولكنه سرعان ما تغير. اصابته غواية جذابة من طريقة حديث منذر عن الكنيسة ذاتها. كان يتحدث عنها بشغف كبير. وكانت الدموع تنساب من قلبه لا من عينيه فقط وهو يحدثه عنها. ادرك الاب

بولس بأن اقوى الارواح هي الارواح التائهة ولسبب لم يدركه هو ايضا وجد نفسه يوافق على ان يدخل هذا الشاب المسلم الى الكنيسة العتيقة والمغلقة.



كان اللقاء الاول كما هو مخطط له. يوم الاحد في الساعة الثالثة ظهرا. تتفق كتب الانجيل بأنها الساعة المباركة التي ولد فيها يسوع المسيح. وقف امامها يتأملها بشغف وعشق لا حدود له. قباب الاعمدة كانت قوطية بامتياز وهي الوحيدة في كل العراق. اما الاعمدة فتشبه اعمدة قصور فرساي الفرنسية الجميلة. فيما كانت النقوش التي تتربع فوقها تتحدث بلغة بابلية صرفة. والشباك الذي

في وسط واجهة الكنيسة يحاكي تلك الشبابيك التي تزين كنائس الفاتيكان الشهيرة. وتسأل منذر (أي روح تلك التي كانت تسكن ذلك المهندس الفرنسي طوال عشرة سنوات وجعلته يبني هذه الاعجوبة في الشرق وفي بغداد عاصمة الطغاة والشياطين).

تلاشت التساؤلات عندما دخل الى باحتها. أحس هو ايضا بأن روحا اخرى تملكته. وجد نفسه من دون ان يدري واقفا امام تمثال السيدة العذراء. ركع امامه لوهلة. وبدأ بعدها يرقص رقصا غريبا استوحاه من حركات طائر البوم الذي يحبه كثيرا. وقف اثناء ذلك زميله وحارس الكنيسة يتأملانه. ابتسم حارس الكنيسة. وبادره زميل منذر للسؤال عن سبب الابتسامة. اخبره الحارس بأنه رأى في الليلة الماضية حلما غريبا. رأى طائر بومة بيضاء وقفت على الصليب الكبير في أعلى الكنيسة ثم فتحت جناحيها. وأشعة بعد ذلك الكنيسة كلها بالنور لتضيء سماء هذه المدينة الغارقة في الظلمات. وكأن روح مريم المجدلية حلت فيها. وكانت تلك القلادة التي يرتديها منذر تشي للرجال الثلاثة بالقدر المحتوم. زميله نادر والحارس سمير والاب بولس. أدرك الثلاثة بأن هناك قدرا ما يجمع بين هذا الانسان والكنيسة.



توقف عن الرقص. توجه نحوهم وكأن كل شئ فيه تبدل. وكأنه ليس هو. وجه كلامه الى الاب بولس (بأي حق وبسلطة من تحرمون مدينة الملوك من تاجها الجميل. الا ترون أن روحها تصرخ متعذبة. كيف اخفيتم واهملتم اجمل جوهرة في بغداد. ان مريم تطلب منكم الا تغلقوا كنيستها. بأي حق اطفئتم نور مريم في بغداد). ركع على ركبتيه امام الاب بولس متوسلا اياه ان يعيد افتتاح الكنيسة البهية. انتقل النقاش والطلب من رجل دين لأخر. ماذا سيفعلون بالكنيسة ان افتتحوها، ومن الذي سيشرف عليها. كان مقنعا جدا رغم كل ذلك. وادرك الجميع بأنه لا يجوز اغلاق هذا الكنز.



اخبر الاب بولس منذر بأن هناك أمورا يجب حلها قبل الموافقة على طلبه لتحويل الكنيسة الى مركز ثقافي. أولها، ان تبقى الكنيسة كنيسة. والثاني، ان لا تناقش فيها الاديان. والثالث، ان يكون من حق البطريركية استعادتها وقتما تشاء. الا ان الطلب الاخير كان الاغرب. (لا يمكننا ان نسلم كنيستنا الى رجل من دين أخر) هكذا قالها بولس. اطرق منذر برأسه في الوقت الذي راحت عيون الاخرين تتجاذب النظرات. مرت لحظات حاسمة. كان عشقه لتلك الكنيسة وروحها التي تملكته غلبت كل السنين والمخاوف. رفع رأسه ونظر نحوهم قائلا (انا لم اعد مسلما منذ زمن طويل على اية حال. سأعتنق المسيحية واصبح راهب هذه الكنيسة. بامكانكم ان تدعوني منذ اليوم بالراهب وليام). وطلب منهم طلبا اخيرا بأن يغير اسم الكنيسة الى لوكسا كليسيا والتي تعني باللاتينية (كنيسة النور).

جان دارك في كنيسة السنك

جرت مراسيم التعميد بحضور عدد قليل من الناس. لم يكن لمنذر احد من عائلته بقي حيا. وحيدا اتخذ قراره الاصعب في حياته. تغيير بمئة وثمانين درجة. انتهت المراسيم وامسك مفتاح الكنيسة بيده. نظر اليه، وكأنه امسك السيف الاسطوري لجان دارك. انتهى الامر ولم يعد هناك مجال للتراجع. عاد الى الكنيسة مرة ثانية. فتح بابها بيده. انها تحتاج الى عمل كثير. سنرفع الغبار عن هذه الجوهرة، وليمزق نور هذه النجمة المتلألأة سماء المدينة الحزينة الغارقة في الظلام. سرعان ما بدأ بالاتصال بكل مؤسسات الدنيا شارحا لهم اهمية هذا الصرح العظيم في بغداد ومكانته. كان مدافعا صلبا وعنيدا. وبدأ نشاطه يؤتي ثماره. وصل فريق الماني لتحديد الاضرار التي لحقت بالكنيسة. وارسل الفاتيكان فريقا لدراسة احتياجات الصيانة والترميم. وجاءت فرق اخرى من امريكا وفرنسا وهولندا. تحولت الكنيسة الى خلية نحل. مهندسون ورسامون وفنانون ومؤرخون من كل العالم يعزفون سيمفونية القيامة من الموت. وكان هو منسق العازفين.

كانت الانوار لا تنطفئ فيها. والجميع يعمل كعائلة واحدة. جعلهم منذر يؤمنون بقضيته، بأهمية هذا البناء. بهرهم بكلامه عنه، في الحقيقة اغواهم. ابتسامته، وبساطته. كيف كان يجمعهم وهم يجلسون على الارض ليأكلو سويا. احاديثه عن العراق وعن حضارة بلاد مابين النهرين واساطير سومر وبابل القديمة. واعجابه بثوماس جيفرسون وبرتراند راسل وجان دارك. وجدوا فيه قديس هذه الارض قبل أن يصبح قديسا فعليا. لم تمض بضعة أشهر حتى انتهت اعمال الترميم والتجديد. وجاء اليوم الموعود.

اضاءت الكشافات الكبيرة سماء المدينة مع غروب الشمس. وجاء الصحفيون والمصورون من كل مكان، بل اتوا من كل العالم. احتفال مهيب ورائع. لم يدع اليه احد من قادة الفصائل الاسلامية. وكانوا هم بدورهم حريصون على ان لا يحضروا. اما هو فلم يكن الامر بالنسبة اليه مجرد احتفال. كان اعلانا للحرب على التطرف الاسلامي. خرج اليهم بثوب ديني ابيض اللون. وراح يأخذ المصورين والاعلاميين في جولة بكنيسته المغوية. اثار اعجاب الجميع. لم يكن اليوم انقضى حتى ادرك أهل بغداد تلك الجوهرة المنسية في مدينتهم. واصبحت حديث المفكرين والمثقفين والشارع. ولكن ما الذي تغير في الكنيسة التي بنيت منذ

قرابة المائة سنة. انه هو.

كان العراقيون متحرجون. انهم يحتاجون دائما لمن يتخذ الخطوة الاولى. بدأ هو بالنشاطات وكان يجيد تسويقها. معارض للصور الفوتوغرافية، قراءات لكتب اثارت جدلا في صالونه الثقافي، وافلام سنمائية اثارت جدلا اينما عرضت. يوما بعد يوم تجرأ الشباب. كان يفتح يديه وابواب كنيسته ليحتظنهم. وضع شرطا ان لا يتجاوز عمر من يقدم نشاطا الاربعين. كانت تجمعا للشباب فقط. افتتح فيها مرسما للفنانين الشباب وصالة للنحت. قال لهم (كفى لا ترسموا الموتى والقبور، ولا تنحتوا اشكالا لا معنى لها. ارسموا العشب الاخضر والاشجار، انحتوا جسد الانسان العاري. ان جوهرة هذه الدنيا هو الانسان، وملاكها الوحيد هو الانسان وشيطانها أيضا).

تعرف شباب العراق مع منذر وبوساطته الى أناس اخرين. برتراند راسل وثوماس جيفرسون وجورج اونيل وارثر ميللر ومـوزارت وباخ ودانتي ومايكل انجلو وفان كوخ وبينيه وداروين وثوماس هكسلي ومارتن لوثر وسيرن كريكور وهوميروس وكانط وموليير وديمقرطيس وجورج لينون وفيفالدي والندي وطاغور وتاتشر ومانديلا وغاندي

وغابرييل غارسيا ماركيز. اسماء وافكار لا نهاية لها. كل روح العالم الحر كانت تحضر كل ليلة في كنيسة بغداد العتيقة. كل الملائكة والشياطين ايضا كانت حاضرة.

وجد اولئك الشباب الاف الامثلة التي يعجبون بها. واكتشفوا بأن الحياة اكبر بكثير من شجار دار بين اتباع عمر واتباع علي قبل الف وخمسمائة سنة. اصبح كل اولئك الشباب يربطون تلك الاسماء بوجه الراهب منذر وصوته وحركات يده ونظراته وابتسامته.

الوصيـــة

(انه يسرق اتباعنا. يفتن الشباب ويغويهم. لن نستطيع ان نستعبد شباب العراق. ونسرق ثروته ومستقبله. لن يبقى لنا احد نأمره فيطيعنا. انه يعلمهم الحرية، والحرية تغوي وتجذب اكثر من العبودية. ذلك الراهب المسلم الملعون وكنيسته الملعونة. يجب أن يصمت الى الابد. ويجب ان نغلق كنيسته مرة أخرى). هكذا قال حسنين الربيعي لاتباعه من احدى العصابات المتطرفة التي تتخذ من الاسلام ستارا لها. قرر بغبائه وعنجهيته المعهودة اعلان الحرب على وليام وكنيسته.

بدأ الصفحة الاولى من هجومه بتحريك اشباه المثقفين الذين اخذوا شهاداتهم في هذا الزمان. مناظرات واتهامات في القنوات الفضائية والصحف ومواقع الانترنت. ولكن كيف لهؤلاء الذين لم يقرؤا كتبا اكثر من اصابع اليدين ان يواجهوا انسانا تربى في مكتبة وعاش في مكتبة. كان منذر يهزمهم الواحد تلو الاخر. ويتساقطون امام ثقافته ودعوته للحرية واعمال العقل كما يسقط اللاعب المحترف

احجار الدومينو. كيف لاشباح الظلام الصغيرة التي تعلمت على التفكير الخرافي والاسطوري وتربت في كنف العبودية ان تهزم ملاك النور، امير الغواية ومنبع الحرية.

لم يمض وقت طويل حتى ادرك حسنين بان اشباح المثقفين الذين ارسلهم كان تاثيرهم عكسيا. وازدادت شعبية منذر وهو يتسلى باسقاطهم الواحد تلو الاخر. بدا حسنين صفحة هجومه الثانية. اطلق العنان للنباحين من كلابه لتلصق التهم بمنذر وتشوه سمعته. لم تبق تهمة الا والصقوها به كافر، ملحد، مرتد بل وحتى مصطلحات هي في الحقيقة شهادة له وليست عليه. علماني، متحرر، وديمقراطي. ولكن آوان هذا الهجوم كان انتهى منذ زمن هو الاخر. ولم تكن تلك التهم لتخيفه على أية حال.

قامت مجموعة من ذئاب حسنين باختطاف وليام في مساء احد الايام. الامر الذي تجيده العصابات المسلحة. معصوب العينين ومقيد اليدين وحافي القدمين. وحيدا في قاعة مظلمة فارغة وباردة في بناية منسية في منطقة التاجي. تواجه الرجلان للمرة الاولى. ورغم تخلف حسنين الا ان تعامله مع البشر علمه قراءة العيون. باحت النظرات المتبادلة بين الرجلين بنهاية اللقاء. (ستبقى معنا قليلا ايها المرتد حتى ترجع الى دين اباءك واجدادك)هكذا قال حسنين.

يالسخرية الاقدار. صار حسنين الربيعي وخلفه تلك الراية التي تحمل اسم الله ومحمد والمفترض ان تحمي حق الناس في معتقداتهم أشبه بأبي جهل وهو يعذب بلال حتى يترك دينه الجديد. واصبح منذر أشبه ببلال واكثر ايمانا منه. لم يكن بلال قادرا على ان يتخيل حياته بدون حرية جسده. وكان يفضل الموت على ان يعيش جسده في رق العبودية. كيف سيكون الحال اذا مع منذر وقد اصبحت روحه حرة. كيف يمكن له ان يتخلى عن حرية روحه وان يسجنها في العبودية مرة اخرى. كيف له ان يقول(انا عبدك وابن عبدك وابن أمتك). انا لست عبدا لأحد واهلي ليسوا عبيدا لأحد. والاله الذي خلقني أيا كان اسمه ومكانه وجعل الدنيا تسجد لي لا يقبل ان اكون عبدا لأحد. ولماذا يكون احد ولي أمري، انسان مثلي. لماذا يطلبون مني ان الغي عقلي. واكون تابعا وجزء من قطيع خراف كبير.

ضجت بغداد خوفا من فقدان راهبها المستنير والمبدع. تحقيقات في القنوات الفضائية ومقالات في الصحف. احترقت صفحات التواصل الاجتماعي. وخرجت مظاهرات في المتنبي. وجاء الالاف المحبين ليوقدوا الشموع له على ابواب كنيسته. ادرك حسنين بانه صار في وضع صعب جدا. وصار التراجع صعبا والاستمرار اصعب. استشاط غيضا من حب الناس له. صنع وليام ما لم يصنعوه

في سنين. لم ولن يفهم حسنين وامثاله ابدا موقف الناس المؤيد لمنذر. لم يحكمهم منذر بالسلاح بل بالحب. انه كان يحب العراقيين، ويريد ان يدخل قلوبهم لا ان يستعبد اجسادهم ومصائرهم.



(لن اسمح لهذا المرتد ان يهزمني. أنا اقوى منه). وكما اشار الشمر على ابن زياد بقطع رأس الحسين. كان هناك شيطان أخر وشمر اخر عند حسنين. قال له هامسا كالشياطين (الم يرتد عن ديننا الى المسيحية. الا يحب المسيح. احبسه يا مولاي في القبو المظلم خمسين يوما. اما تنكسر عزيمته ويعود لديننا فننتصر، واما يعود لأصحابه مخبولا فاقد العقل ويكون عبرة لغيره). اعجبت الفكرة حسنين الربيعي كما اعجب ابن زياد بفكرة الشمر. صرخ حسنين في اتباعه (خذوه الى القبو واعطوه نصف رغيف من الخبز اليابس

ونصف قدح من الماء فقط كل يوم، ولا يرى النور ابدا).

مرت الايام طويلة ومؤلمة. كان الجوع والتعب انهكه. كان الالم والاعياء قاتلا. (تحمل يا وليام ... تحمل ... شارف الالم على الانتهاء) هكذا كان يحدث نفسه. وظل في ذلك الظلام الدامس يستعرض شريط الذكريات الجميلة. والداه وزوجته ومنزله ومكتبته وعلم بلاده خفاقا حرا وضحكات الاطفال وصوت الحمائم. انتهت المدة المقدروة. لم تكن تلك العصابات المتسترة بغطاء الاسلام تريد قتل الاحرار حتى لا تصنع ابطالا للشعب. انها تريد ان تحطمهم وتجعلهم عبرة. حملوه في سيارة مغلقة وقيدوه على ابواب كنيسته. وصل العاملون الشباب الى الكنيسة. كان المشهد مروعا. ربطوا على الباب خشبة بسلاسل من حديد وعليها جسد لانسان تعرض لحرمان مرعب. ركع كل من راه على ركبتيه باكيا. اصيبوا بصدمة كبيرة. لم يتصوروا ان يصل الحقد والظلام بنفس اي انسان الى هذا الحد. انزلوه من البوابة. وحملوه الى داخل كنيسته. وصل عشرات الاطباء لمعالجته. رفض وليام السفر الى خارج العراق وآثر البقاء في كنيسته. الاصدقاء والمحبون غاضبون ومتألمون. لم يدمر ذلك الاحمق حسنين الربيعي رجلا بل دمر عراقهم باكمله. واظهر لهم بأنهم يعيشون في عصر الغاب ومملكة الذئاب. لم يمض وقت طويل حتى فارق منذر الحياة.



حملوه الى كنيسة سيدة النجاة. وهناك اقاموا له مراسم التعزية. احتاروا اين يدفنوه. وقفت بهية وهي رسامة شابة اقام لها معارض. (كان يحب ان يدفن في كنيسته) هكذا تكلمت. كان القرار صعبا ولكن لابد منه. وقف الاب بولس والدموع تنهمر من عينيه (ضحى هذا الانسان بحياته من اجلنا. الى متى نخاف ونهرب. هذه ارضنا. ارض بابل واشور. لن نسلمها لاعدائنا ابدا). حتى بابا الفاتيكان الذي كان حريصا دوما ان لا يخرج عن هدوئه. دعا

الى اجتماع كبير ومن شرفة كنيسة القديس بطرس خرج لمحبيه. (يا احباء يسوع، يا احباء السلام والحرية. اني لا اجد ما اقوله في الراهب وليام. وما عاناه بسبب حبه لدينه تجاوز كل ظلم في زماننا. لذا اسمحوا لي ان اتخذ قرارا لم اعتد على اتخاذه وحدي. انني اليوم اعلن ترسيم الراهب وليام الى القديس وليام ليكون اول قديس من بلاد الرافدين). وضجت الدنيا كلها لدموع بابا الفاتيكان.



حمل مسيحيو العراق نعش قديسهم على عربة وساروا خلفها في مسيرة مهيبة وصامتة من كنيسة سيدة النجاة الى كنيسة النور. ترك مسيحيو العراق خوفهم، وحلت فيهم روح الشجاعة. مسيرة غريبة، اشبه بتلك المسيرات التي كان يقوم بها الايرلنديون امام محتليهم وظالميهم من الانكليز. صمت وقور وعزة مهيبة ودموع تتلألأ. وقف المسلمون

ليشاهدوا. رفض جلهم ما قام به حسنين وعصابته. وقرر الكثير منهم المشاركة في المسيرة. اصدر بطريرك الكلدان أمره بتغيير اسم الكنيسة من كنيسة النور الى كنيسة القديس وليام. واتى بابا الفاتيكان بنفسه الى بغداد ليقيم قداسا فيها يستحضر فيه ابطال القصة من المهندس الفرنسي بيير باري الى القديس وليام. وقرر ان يقرأ وصية وليام بنفسه.

أيها العراقيون احبوا بعضكم. وانشروا المحبة بينكم. احبوا حتى من يكرهكم. احبوا الحياة. احبوا العصافير والحمائم. واحبوا النخيل. افرحوا دوما وارقصوا دوما. ولا تجلسوا مع من يحمل السلاح في بلادكم ولا تسمعوا لهم ولو كانوا من اهلكم حتى يتركوا سلاحهم. اقبلوا اخوانكم في الوطن كما هم. لا تحاولوا ان تجعلوهم مثلكم. لاتحاربوا ولا تحملوا السلاح بل احملوا الازهار. لا تسمحوا للذئاب ان تستبيح ارضكم. لا تحاربوهم، اعزلوا انفسكم عنهم حتى يخرجوا. لا تكونوا عبيدا لاحد لأن الرب خلقكم احرارا. ان الرب الذي جعل الدنيا تسجد لكم لا يقبل ان تكونوا عبيدا لأحد. بوركت أرض بابل واشور. وليحفظ الرب الرحيم بغداد الجميلة واهلها. وليحفظ العراق العظيم من ذئاب الشر وغربان الشيطان. وليحل السلام في الارض. السلام والحرية هما الرب.

هرب حسنين وعصابته الى خارج العراق تحت الضغط والرفض من

العراقيين. اما وليام فيمكن ان ترى عيناه وابتسامته في كل مكان في العراق. تراها في زقزقة العصافير وهديل الحمائم والنخيل العملاق. وصوت طفل صغير. وفي لوحة تشكيلية ترسمها فنانة شابة، او في رقصة باليه يؤديها شاب عراقي. تخلصوا من رعبهم الذي ضاقوا ذرعا به. لم يعد هناك أحد فوق القانون الا واحدا فقط وهو العراق. علمه هو تاج رأسنا، وحدوده هي التي تحمي اعراضنا، واستقلاله هو الخط الاحمر الذي يوسم بالخيانة من يتجاوز عليه. العراق هو صاحب الفضل علينا، وليس لأحد فضل عليه ولا على أهله. اصبحت بغداد ترفع شعارات الثورة الفرنسية مثل باريس النيرة (حرية ، مساواة ، اخاء). لن يقبل العراقيون ان يتنازلوا عن حريتهم التي اهداها لهم القديس منذر عبد الوهاب محمود امين المكتبة في دار الكتب الوثائق العراقية. ومازال الناس ياتون الى قبره في كنيسته ليوقدوا الشموع ويضعون الازهار لأنه علمهم الحب والحرية.



فهرس المحتويات